

وهي مجموعة مقالات وخطب

وشعر منثور

امين الريحاني

الجزء الرابع

﴿ طبعة اولى ﴾

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣

الريحانيات

الجزء الاول	يحتوي على مقالات اجتماعية ادبية انتقادية ومنثور للزارعين
الجزء الثاني	يحتوي على خطب ومقالات انتقادية وشعر منثور
الجزء الثالث	يحتوي على مقــالات اجــتماعية ادبية انتقادية وخطب
الجزء الرابع	يحتوي على شعر منثور ومقــالات اجتماعية وسياسيه

ثمن كل جزء من الاجزاء ١٥ غرشاً مصرياً
او نصف ليره سورية * او ثلاثة ارباع الريال في الاقطار الامركية
او روبتين ونصف في البلاد العربية والمملكه العراقية

تطلب هذه الاجزاء من يوسف صادر صاحب المطبعة العلمية
والمجلة القضائية في بيروت * ومن جميع المكاتب السورية والمصرية

الريحانيات

وهي مجموعة مقالات وخطب

وشعر منثور

تأليف

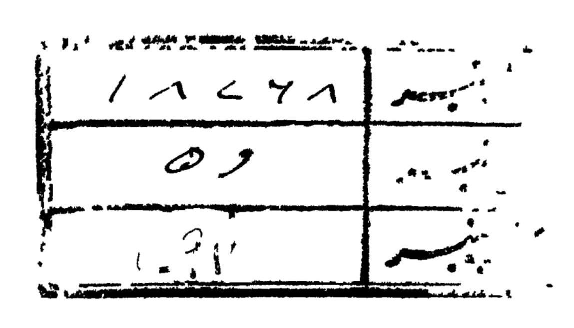
امين الريحاني

الجزء الرابع

يحتوي على شعر منثور ومقالات اجتماعية وسياسية

﴿ طبعة اولى ﴾

طبع في المطبعة العلمية ليوسف صادر في بيروت سنة ١٩٢٣



النجوى[1]

– ياذا الجلال الازلي ، الحفني بشيء من جلالك .
ياذا النور الدائم ، امددني بقبس من نورك .
ياذا القوة غير المتناهية ، ابعث منها في قواي .

* * *

– انما انا مبدأ الحياة الازلية ، وعين الحب والقوة ،
واني حي فيك ، عليم بنجاويك .

* * *

– انت الحياة باجمعها ، اولاً وآخراً ، واني لاحيا بك .

* * *

– انما انا مصدر الادراك البشري ،
وسأزيدك ادراكاً بانك جزء مني .

* * *

– ساعدني اللهمّ لاجمع قواي الروحية ، والعقلية ، والجسدية ، في سبيل الحق والحب والحكمة .

* * *

---

(١) هي الصلاة التي كتبتها في الرياض ، صمة نجد وكنت اصليها في البادية . وكم في الحياة البشرية من بوادٍ لا جوهر في وجودها غير الله وتلك الروحية التي تصبو دائماً اليه .

– اني ايها الانسان مصيخ اليك، مطلق يديك، منعم عليك.

* * *

– يا ايها الينبوع السرمدي ،
المنبعثة منه انوار الحب ، المتدفقة منه مياه الحياة والعافية ،
اني افتح لك عقلي وقلبي ، وابسط امامك روحي ، فلا تحرمني فيض مكارمك ، ولا تبعدني عن ينابيعك .

* * *

– ان ينابيعي لفي النجوم ، وفي ما يربط النجوم بعضها ببعض . وفي ماينشأ عن ذا الارتباط من قوة وعافية .
ان ينابيعي لفي الحقول ، وفي ماينشأ فيها من الازهار . وفي ما يبعث من الازهار اريج الحب والجمال .
وهي كلها امام عينيك، وطوع يديك يد العقل الكشاف ، ويد الروح الخالدة .

* * *

– انك الهي ، ولا آله لي الاك .

* * *

– اني نبض الحياة فيك، وروح الحب فيك، ونور الحكمة فبك كن عليها اميناً ، فهي الالوهية ديناً ويقيناً .

* * *

الرياض ، في ١ كانون الثاني سنة ١٩٢٣

على رمل الاسكندرية

ايه ايتها الامواج الخالدة ، كم شاهدت من امواج الانسانية ومن
بحورها الفانية .

امام عيونك الزرقاء ، وفي ظل ابتسامتك الفضية ، كم تبخر بحر
ونضب ، وكم تبددت تحت اقدامك موجة هادرة شامخة
من امواج الناس .

على هـذا الساحل الذهبي الجميل لعبت الملوك قديماً ادوارها
فتغنت بها ارباب الفنون ورددت صداها السن الشعراء

بالقرب من صدى هديرك الهائل هاجت امواجهم وماجت ، فمادت
الى حيث لايبلغ مدك ولا تبصر عيونك الرمل والصخور

عادت امواج انفسهم المضطربة الى حيث لا نبع الا نبعك الدافق
من ميازيب ذهبية في بساتين من النور الازلي الروحاني .

هناك نبعك ايتها الامواج ، وهناك ايضاً نبع الانسانيـة .

لقد هجت قديماً في صدر الاسكندر فجئت به الى هنا ليبني لك
هذه المدينة الزاهرة .

لقد حملت انطونيوس اليها ليطفئ لوعة غرامه .

لقد منحت القيصر قسطاً من عظمتك فخاض عبابك طمعاً بملك

عظيم ، بل شغفاً بوجه وسيم .

واراك الآن هائجة في قلوب الصغار والاذلاء ، كما هجت قديماً في قلوب الملوك والامراء

اراك مضطربة مبتسمة معاً اذ تشاهدين على ساحلك هذه الامواج المزدوجة من بحر الانسانية .

هي تتمازج على الرمل في كنف الصخور تمازجك في بطن امك .

هي امواج من النفس يحنّ بعضها الى بعض ، ويهيج بعضها على بعض ، ويختفي زبد الواحدة تحت زبد الاخرى ، ويذوب زجر الهائجة تحت مد المدبرة .

الحب ايتها الامواج يؤيدك .

والحب يحمل اليك هذه الامواج القلقة الفانية .

ومهما عظم اضطرابها على سواحلك الذهبية فانما راحتها في ابتسامتك الفضية الدائمة .

* * *

لا تعجبي من هياج هذا الانسان واضطرابه فما هو سوى طوائف من الاسماك والحيوانات البحرية تختبط في بحر من النفس لا يرى .

ان مدينتنا من المدن الكائنة تحت امواجك . ايها البحر الهائل ايها الرقيب الازلي .

وفيها من الحيتان والدلافين ما يزري بحيتانك ودلافينك .
فيها يهدر بحر من هذه الانسانية المتكالبة .
ولكل موجة من هذا البحر الغريب لون يختلف عن الآخر .
لكل موجة صوت لا يشبه اخاه .
لكل موجة شكل ومنهج وعبوسة وابتسامة .

* * *

هـذه الاسكندرية وفي بحرها تشاهدين الآن ما لم تشاهديه فيما
مضى من الزمان .
امامك الان امواج مزبدة من نهر التايمس الهادىء . وامواج
هادئة من نهر المسيسبي المتدفق . وامواج كرواسي الجبال
من انهر السين والرين والدنوب . وامواج عليلة لطيفة من
بحر الاحمر وبحر الهند وبحر فارس .
هي الامواج يتلاطم بعضها بعض ، ويمتزج بعضها ببعض .
هي الامواج تقتل بعضها بعضاً ، ويصبو بعضها الى بعض .
وفي هذه الحركة الدائمة تذوب الذات وتتلاشى الاصوات .
في هـذا العراك الشديد والضجيج المديد ، تضمحل الاشكال
وتنقرض الرجال .
اجل . هم يشيدون الصروح وهم يهدمونها ، هم يأسسون
الممالك وهم يبيدونها .

ثم تطحن وجوههم تحت اقدامك . وانت باسمة ضاحكة .

* * *

ايتها الامواج الناطقة بلسان الفناء والازل . الحاملة الينا نبأً من الموت ونبأً من الخلود .

ان بحر الانسانية ليفيض وينضب ، ليزبد ويهيج ، ليهدأ ويتبخر ويتلاشى ، وانت الى الابد في عين الشموس والاقمار .

تشاهدين اباطيل هـذا الزمان ، كما شاهدت اباطيل الازمنة الغابرة .

تسمعين ضجيج ابطال هذا الجيل في ال « بورص » كما سمعت من ابطال الاجيال الماضية صليل الرماح في ساحات القتال .

وتستقبلين الشمس كل مساء لتلحفيها ليـلاً بحبك ، كما كنت تستقبلينها يوم لم تكن على سواحلك المدن .

ولا عمران كان ، ولا نبت ولا حيوان .



نبوكدنصر الشحاذ

ولِمْ تنبح الكلاب ؟
من ذا الذي في الباب ؟
ان في الباب مليكاً دوّخه الزمان .
ان في الباب شبحاً محنياً تحت وفاضه ، متكئاً على هراوته ، يمد يده باكياً ، ويهينم شاكياً .
شبح مخيف يرتعد كالمحموم ، لا يعرف أمن الناس هو أم مما فوق او تحت طبقات الناس .
طيف من اطياف العياء والمذلة ، نهب دآء وفاقة ، يطوف البلاد كفارة عما اقترفه من الآثام سواه .
تصرخ فيه معدة ظالمة ، فتذل فيه صورة الصمد المتعال .
تصفر في رأسه الرياح فتصرعه ، فيردد صداها شبح الوساوس والايام يهذي فيتساقط اللعاب من فيه ، اسير اسقام واوهام .
يدق صدره مستعطفاً فيرتجف هيكله الهشيم ، ارتجاف قصبة في الرياح
ان في الباب شحاذاً يستنبح الكلاب .
ان في الباب مليكاً دوخه الزمان

واليك بخبره من فيه –

« انا نبوكدنصر من بين النهرين – نبوكدنصر الشحاذ . الملك .
ملك بابل وآشور – الله سبحانه يطوّف بي في العالم مثقلاً
بما ترونه من ذلة وفقر ومرض وصرع وجوع واوجاع . . .
اعطوني الله يعطيكم »

ولله من ملك تحرق عيناه اللقمة ، قبل ان تدخل اللقمة فمه .

لله من ملك طي هذه الاطمار ، في هذا الهيكل الهشيم المخيف .

على كتفيه وفاضه ، وعلى ذراعيه مواعينه ، وفي يـده هراوة
يستعين بها على الدهر والكلاب .

لله من ملك على رجليه من آثار المفاوز اشواكها ، وفي ساقيـه
جروحها ، وقد ركمت عليها الاسفار غبارها .

لله من ملك يتساقط الدم من انفه ، والدمع من عينيه ، فيجمد
على لحيته اللجين وعلى صدره الياقوت .

ويورد الصرع خديه ، فتلتهب الاحلام في محجريه .

هنالك شيء من الهول ألبسه الدهر قيصاً حاكتها شياطينه .

بل هنالك غور غدور من ظلمات الزمان ، ونبأ من عصورٍ عقم
فيها الهيكل والصولجان .

وفي ناظريه ساعة الصرع غيظ يحتـدم – ولا غيظ من علَوا
العروش مجداً .

في ناظريه يتجسم الويل وقد ذاب عظماً وعزاً ووجداً .

ها هو امامك مغمي عليه .

قد ذبل الورد في وجهه ، واضطرم الوهم في ناظريه .

قد ذهب التلجلج من فيه والرجف من يديه ، فهو لا يهينم الآن شاكياً ، ولا يمد يده باكياً .

هو يرغي ويزبد لا كالصريع ، بل كالمليك المنيع ، وقد شخص الى الفضاء يصب عليه لظى تغيظه .

كأن ملكه في الفضاء ، وكأن عرشه في كبد السماء .

— « انا نبوكدنصر ملك بابل وآشور — تاجي ، صوجاني ، وزرائي ، موعدكم غداً — اليّ بآلة الصيد — لا — اشعلوا الانوار . اين الاماء الحسان — حركوا الاوتار — تعالي . . . تعالي اليّ — ليس الآن وقت العبيد — سوقوهم الى السجن — الى النار — الخائنة — الفاسقة ـ الى النار ـ آه عليك ـ آه عليّ ـ اواه على ملكي » . .

وهذا مليك دوخه الزمان ، وعضه الويل في الكبد والوهم في الجنان .

ان في الخيال الثائب الى رشده ، الواقف امامك الآن ، الناطق بخليط من لغات العرب والكلدان ، نبأ من غور ظلمات الزمان .

ان فيه تجسم ظلم الدهور وعدل الزمان .

بل فيه تتجسد ارواح من جاروا على الانسان .

بلى . ان في مثل هذا المتسول الصريع المجنون ، ليتقنص الظالمون ،

. . . . .

ولِمْ تنبح الكلاب ؟
انما نحيب الكلاب هذا لا نباحهم .
نحيبهم على من في الباب ـ على مليك صرعه الزمان ، على شحاذ
عضه الوهم في الكبد والويل في الجنان .
حتى الكلاب ينتحبون ويتساءلون ـ
اين الروح التي نفخها الله في هذا الذي خلقه على شكله ومثاله ؟
واين الكرامة التي تميز البشر عن الحيوان ؟
واين الاباءة التي ترفعه على اسياده الى خالقه ؟
اين من الرجال عزة النفس والشرف والحمية والعزم والنشاط ؟

. . . . .

ان في الباب شحاذاً من بؤساء الكلدان ممن ارهقهم سيف ابن عثمان .
طواف يطوف البلاد متسولاً كفارة عن ذنوبه وآثامه .
بل عن جرائر حكامه .
هو حجة الزمان ، على طغاة الزمان .
هو دمّل من دمامل مجتمع الانسان .
هو ثمرة طغيانكم ايها الرؤساء والحكام ،
هو صنع يدكم الاثيمة لا صنع يد الله .

الى الذي صلب

من ديوان ولت وتمان Walt Whitman الشاعر الاميركي الشهير (١)

ان روحي ايها الاخ الحبيب لتصبو الى روحك .
لا تبالي اذا كان الكثيرون يرددون اسمك مرنمين ولا يفهمون .
انا لا اردد اسمك مرنماً ، ولكنني افهمك ـ وهناك آخرون مثلي .
اني لأختصك بحبي ايها الرفيق العزيز .
سلام عليك ، وعلى الذين معك ، من قبل ومن بعد ، وسلام كذاك على الآتين .
ألا اننا نعمل معاً لنعقد في الناس عهداً واحداً ، ونحيي فيهم وصية واحدة .
نحن القليلين ، المتساوين ، لا نحفل بالزمان ، ولا حدود عندنا للبلدان .
نحن المحيطين بطبقات الناس جمعاء ، وبقارات الارض كلها .
نحن المسلمين بكل الاديان .
نحن المحبين ، المؤاسين ، المدركين ، المؤلفين بين الرجال .

(١) راجع الشعر المنثور في الجزء الثاني من الريحانيات صفحة ١٨١

نمر بالخصومات والمزاعم ساكتين ، ولكننا لا ننبذ شيئاً مما زعموا ، ولا ننكر احداً من المتخاصمين .

ان لغط القوم وضجيجهم لبمسمع منا في كل حين .

الينا تتصل شقاقات العباد ، والمعاير ، والاحقاد ، من كل جيل وبلاد .

هي تكتنفنا لتعتقلنا يارفيقي ، ولكنها عبثاً تسعى .

اننا احرار ، نسير في العالم ، ولا قيد فيه يقيد مثلنا .

نضرب في مناكب الارض وسهولها ، نجوب انجاد الحياة واغوارها ، لنترك في الزمان وفي الناس آثارنا الخالدة .

بل لنشرب الاجيالَ روحَنا والدهور ، فينشأ الرجال والنساء في مقبل القرون ، وهم اخوان مثلنا محبون .

نيويورك

أبنت التمرد في العالم القديم ، وعروس التفرد في العالم الجديد ،
وام الفوضى في العالمين ، ويل لابنائك وعشاقك .

أطليقة الهنود بالامس ، وحظية اليهود اليوم ، وحاملة بنود الثورة
غداً ، ويل لابنائك وعشاقك .

مهدك الحقول وفيه ثعابينها ، سريرك المعادن وفيه سمومها ، عرشك
جبال الثروة وحوله وحوشها ، ويل لابنائك وعشاقك .

احشاؤك من الحديد وفيها عقمه . صدرك من الخشب وفيه سوسه .
فمك من النحاس وعليه صداوءه . جبينك من الرخام وفي
جماله جموده . ويل لابنائك وعشاقك .

تشربين ذوب الابريز ، وتأكلين معجون اللجين ، وتنتعلين اجنحة
العلم ، وتلبسين الفاخر من الحرير والنادر من الحلى ، وقلبك
قار يشتعل ، ويل لابنائك وعشاقك .

أبنت الالوان والانوار ، شعرك في الليل اشقر ، واسحم في النهار .
تصبغينه لكل مراود وتغسلينه لكل مغيار . ويل لابنائك
وعشاقك .

أبنت الهمس والصياح ، ليس في صوتك نغمة من انغام الفجر

والصياح ، بل في صوتك رنة الذهب وجوده ، ان في الملاهي وان في الاسواق ، ان في المصارف وان في الكنائس ، ويل لابنائك وعشاقك .

أبنت الثروة والاحتكار ، في مخازنك خيرات الارض ، وفي خزائنك الاموال والحلى ، وفي قصورك عجائب الحضارة ، وفي جاداتك بهاؤها وضجيجها وهولها وعجيجها ، وفي اكواخك الظلمة والفقر والجوع والانين ، ويل لابنائك وعشاقك .

في اسلاك قلبك انباء الحب والخداع ، وفي عروقك اعباء التجارة والاطماع ، وفي اعصابك اهتزازات شرور السرور ، وفي ربلاتك شهوات صرعى الغرام ، ويل لأبنائك وعشاقك .

لله منك حرة نعارة ، تاجرة فاجرة ، عذراء الجنون انت وزانية الفنون ، في فسقك وفي برك سلطانة اثيمة ، ويل لابنائك وعشاقك .

مهلاً بنت المعادن والكهرباء . مهلاً ربة العمل والغناء . ان من ذي الارض جمالك لا من السماء .

جمالك نور في زجاج يزول اذا كسر الزجاج ، جمالك في قصورك لا في خدورك ، في مسراتك ، لا في مبراتك .

جمالك يملأ الفضاء نوراً والنفس ظلاماً ، نبت اثيل اوراقه جسيمة وازهاره سقيمة ، — هذا جمالك .

نهر من الكهرباء ، على ضفتيه جبال من الرخام ، وغابات من الحديد ، هذا جمالك .

ليل باهر ، نجومه من معامل الانسان الفانية ، لا من معامل الله الابدية ، تعساً لهذا الجمال .

ساعة ، اولها ابتهاج ، وآخرها تثاؤب ، قبحاً لهذا الجمال .

مسرح الاهواء واللذات والاطماع صدر جمالك ، آخر ما اخترعته المدنية من آيات الكذب والمصانعة ، عين جمالك .

ضخامة تتمخض بها التجارة ، فيلقبها التجار بالعظمة والفخامة . لقد كذبوا والله وكفروا .

جمال معبودهم كدولار ، صك في الليل وطلي في النهار ، تباً لهذا الجمال

***

أفي ساعديك عروس العالم الجديد يعظم حسنك ، أفي اصغريك يضمحل أفي سفاهتك يحيا ، أفي بداهتك يموت ؟

أيتلألأ في عيونك ازرقاق نور المجون ، وينطفىء في قلبك سناء شعلة الشعر والفنون ؟

***

أعروس العالم الجديد ، عرس من انت اليوم ، وغداً عرس من تصبحين ؟

أمن خدر الهنود ، الى خباء اليهود ، الى قبضة القرود ؟

أمن اكواخ الحريـة ، الى مخادع الفسق ، الى صروح الثروة ، الى
هاوية الثورة والويل والهلاك ؟
رحم الله انفساً عرفتك طاهرة ، وويل لانفس عشقتك عاهرة .

***

(نيويور كليم) حسدتها اليوم اورشليم .
(نيويور كليم) ، وفيها العبرانيون يمرحون ، ولا ينتحبون ، وويل
ل (نيويور كليم) .
أفي صحافتك كما في تجارتك ، أمن على منابرك ومسارحك ، يعلو
صوتُ اسرائيل اصوات ابنائك الحقيقيين ؟
اتملأ (تامار) اسواق الليل دعارة وملاهيه فسادا ؟
انقبض (ياعيل) اليراع اليوم كما قبضت السيف في سالف
الزمان ؟
وشتان بين عدو وعدو ، بين الظلم (سيسرا) الامس والحق وهو
(سيسرا) اليوم .

***

أبنت اليهود والقرود ، اين منك اليوم فضائل الجدود ؟
ماضيك من النور والنار . وحاضرك نور مستعار .
ومستقبلك ؟ – لا بد للمستعار من ان يزول . « وحسن الوجوه
حال يحول »

***

في حسنك لعنة جسمها الله في ذي الابراج تحت سمائه .

اصاغها من التبر ، وضمخها بالطيب ، وكللها بالتيجان ذات القباب المذهبة .

قباب هي دمامل الارض ، وانفس أتحتها هي دمامل الحياة .

***

وغدا تصير ابراجك في انفاقك ، ويدفن مجدك الكاذب تحت انهارك ، فتبكيك عندئذٍ نينوى وتترحم عليك بابل .

نيويورك في كانون الاول سنة ١٩١٠

بلبل الموت والحياة

في القفص يغرد البلبل ، وفي الاودية تولول الرياح .
والاشجار تنثر اوراقها على ازاهر تموت في الحقول .
ومن اليم يتصاعد السحاب فيثير في قلب الآفاق اشجاناً تسوقها
رياح تذيب السحاب .
اراها ثائرة حول صنين فيسمعني الوادي صدى نشيدهـا ، وارى
اوراق الغاب على صدور الرياح فيسمعني الحب صدى آمالها
وارى زجاج النوافذ وقد قبلها الشتاء فيسمعني الليل بكاءها ،
ويريني الفجر دموع اسرارها .
انه ليوم السكينة ، ليله وليل اعاصيره سويّان ، وصوت النعي
وصوت البشير فيه شبيهان .
انه ليوم سكينته من القبور ، وصراخه من اعماق قلب الديجور .
في الاودية والاحراج وفي السهول والجبال تتقطع انامل الطبيعة
في نول امالها ، ويذوب قلبها على مذبح جمالها .
اننا لفي الخريف ، والى جانب الموقد على جلود الصوف تجلس
انفس الجبال لتسمع في النار نشيد الزمان .
والزمان يندب ابنه المشرف على الموت ، يندب العام الذي دفن
الازاهر تحت ما تناثر من اوراق حبه ، وجاء يحفر قبره في

الثلوج .

وفي القفص يغرد البلبل ، وفي الاودية تولول الرياح .

***

ألا قف بي على اطلال العام ، نزَ مشهداً شيدت فيه هياكل الحزن والهيام ، هياكل يرفع الربيع تماثيلها فيسقطها الشتاء الهدام .

ان صوت النعي لينتشر في الغابات والحقول ، في المروج والجبال بين الاشجار والصخور .

انه ليخرج من الصخور اصواتاً كهدير الامواج حول طنين الاجراس ، ومن الاشجار الحاناً تحسبها منظومة من مراثي ارميا ومزامير داود .

وانه ليهز ادواحاً راسخة في ارضها فينبه فيها شمائلها .

يتشامخ الصنوبر كبراً وعتواً فتغمز اعناقها الرياح .

يتماوج الزيتون حباً وحنواً فيبدو على اغصانها نثار فضي كالنجوم المائلة بين الغيوم السوداء في الليلة الليلاء .

وانه ليهمس في قلب السماق واللوز فتختال غنجاً ودلالاً .

وانه ليضرب على اوتار الارز فيسمعنا نشيداً قديماً ، ويرينا ولو في القبر سحراً حلالاً .

وانه ليصرخ في الارض صرخة حق ، تزعزع السهول من الارض والجبال .

وانه ليسكت فتنصت السماء ، وتنصت البحار ، وتتناثر من الاشجار

اوراقٌ امالها ذات اليمين وذات اليسار .

فتحملها رسل الخريف لتكلل بهـا العام وهو في حال الاحتضار .

ورقة بالية، من شجرة عالية ، تحملها العواصف الى حيث لاتدري الايام ، أهذي هي الحياة ؟ أهذا هو الموت ؟

في القفص يغرد البلبل ، وفي الاودية تولول الرياح .

***

اسدل الظلام على الافاق سدوله .

من البحر الى الجبال تتسارع الغيوم السوداء وعلى اهدابها زبد يكلل الامواج اذا هاجتها الاعاصير .

انها لبحر من السحاب زاخر فو ق بحر هائج من الماء .

وفوق جبال يذرّي ثلوجها الهواء

وفوق أودية تتقصف فيها الاشجار .

وفوق سهول يغشى اخضرارها الغبار .

وفوق كنائس مهجورة تصفر في كواها الرياح .

وفوق مقابر لا يخيفها الليل ولا ترعبها الاعاصير .

وفوق كهوف فزعت اليها وحوش الغاب .

وفوق انهار تجرف اليها الزوابعُ الصخور والاشجار .

من اعالي الجبال الى اعماق الاودية والبحار

من سهول الحياة وجبالها ، تحت سماء الليالي وسحابها ، الى اعماق بحار الابدية —

اهذي هي الحياة ؟ اهذا هو الموت ؟
في القفص يغرد البلبل ، وفي الاودية تولول الرياح .

***

يولي الخريف وتبقى ظلمات يومه ، فنشاهد غروب شمسه ، ونرتشف شفاه نوره .
ظلمات تذوب من قبلات الشمس وقد مالت الى المغيب ، فبدت اشعتها من خلال الضباب المتكاثف فوق اليم ، فلمست اسلاك سحرها بيوت الجبال ، فتلألأت في زجاج نوافذها قطع من الماس المنقطع النظير ، ولاماس امراء الهند ولاماس معادن اوفير .
تغرب شمس الخريف فيتكون حولها من انيق الاشكال وجميل الالوان ما يعجز عن وصفه البيان .
وانى نحاول تصويرها على القرطاس وقد سكرت منا الحواس .
ان امواج النور على جبين الخريف لكندى الفجر على زنبق نيسان : هذا تشربه الشمس وذاك يشربه الظلام .
تعالوا اخواني نرتشف كأس الشمس وكأس الظلام .
ففي القفص يغرد البلبل ، وفي الاودية تولول الرياح .

***

الغروب في مجده وفي اجمل بلاد الله من يستطيع وصفه ؟
من يستطيع تصوير شيء من جمال حركاته وسكناته ، من بديع

الوانه وخيالاته ، من هول اضطرابه وهـدوءه ، من بهاء
بعده ودنوه .

لايتوقعن القاري ان ننقل اليه طرفاً من سماء سوريا على صحيفة
من القرطاس .

ان ما يتنوع فيها من الالوان، وما يتعدد فيها من اشكال الجمال،
ساعة مغيب شمس الخريف ليستحيل استخراجه من هذا
السائل الاسود (الذي يسود الوجه والقلب احياناً)

جل ما نستطيعه ان نشير اشارة الى جمال الطبيعة وغموضها ، الى
غرائب شمسها واسرار غسقها .

يقصد السياح جبال سويسرا ليشاهدوا منها غيـاب الشمس ،
والشمس هناك تغيب في الاحراج او تختفي في الثلوج .

وشمسنا شمس سـوريا تستحم في البحر فتتورد من مشهد
استحمامها الجبال .

قف معي والجبال نشاهدها الآن ، قف معي والبلبل ننشد جمالها
ها انها قد دنت من الماء فتجسمت حولها الالوان جبالا وسهولاء
وبسطت الغيوم اودية وحقولا ، وبدت الانوار في الضباب
جزراً وصخوراً ، وغزلت من انامله في المياه خيوطاً براقة
وفسولا .

هي تبعث حبها في الغيوم فتشعلها اشعالاً ، فيخيل للناظر انهـا
عرائس راقصات ، في مروج خضراء ، على شواطيء بحيرات

من دم المحبين حمراء .
بل حول جبال كانها البراكين ، ترقص اراوح المحبين .
سوّتهن الشمس من الغيوم فأحيتهن قليلاً نارُها ، ثم احتجبت
عنهن فاستحلن جماداً ، ثم ظهرت قليلاً فابدعت وودعت
ثم ارسلت في الجماد نورها فكونتهن بوارج ، والبوارج تجري
ملتهبة في بحر رهو من اللوءلوء المذاب .
والغيوم اشكالاً ، وقد أُشعلت اشعالا ، شبيهة بمدينة احرقها
اهلها خوف ان يحتلها العدو .
ألا في الضباب وقد بدت اشباحاً أثر الهاربين ، وفي السهول
الخضراء وقد جرت فيها السواقي الحمراء كتائب الفناء .
من مدن النور ، الى ساحات الحرب ، الى ظلمات الليالي —
اهذي هي الحياة ؟ اهذا هو الموت ؟
في القفص يغرد البلبل ، وفي الاودية تولول الرياح .

***

ومن ساحة القتال، تنتقل النفس الى مملكة الحب والجمال .
عند المدينة المحترقة المدمرة ارى قصراً فخماً ، حوله بحيرات
صفراء ، على وجهها خيالات من الضباب الشفاف ، تبدو
مع لمح البصر وتغيب .
كأن كل ما في العالم من العنبر ، وكل ما في السهول من الزعفران
يذاب في تلك البحيرات ، لتغتسل فيها بنات ، النور بل

الحب والسرور ، حول اميرتهن اميرة البدور .

والى جانب هذه البحيرات الراكدة بحر هائج من عصير الرمان، تعلو امواجه حباحب من عصير الفل والاقحوان ، وعلى شاطيء هذا البحر ظلال مدينة قائمة في الفضاء ، حولها سواق جارية زرقاء ، وفي السواقي صخور كبيرة شهباء ، ووراء الصخور سهول فسيحة خضراء ، وفوق السهول جبال سوداء وبيضاء ، وفوق الجبال نجمة واحدة حمراء .

مدينة سماوية في ارض سماوية تستمد الشمس منها النور ، فتعكسه خيالات والوانا كالموشور .

انما الشمس موشور الله . وان ما نشاهده من غريب الوانها واشكالها لهو فيض نور الله منعكساً على الشمس ، فتظهر ا... العجائب وتخفيها قبل ان يفيق القلب من سكرة الابتهاج لينطق بالتسبيح .

في القفص يسبح البلبل ، وفي الاودية تسبح الرياح .

***

اشرف النهار على الموت كما اشرف الخريف .

يموت الخريف تحت جنح الظلام على صدر العاصفة ، ويموت النهار معانقا الشمس وهي تقترب من الماء بما فيها من جمال وبهاء .

ان النهار ليغتسل معها عريانا ، فيغرق معها فرحا ولهانا ، بل يموت على صدرها ميتة الغرام نشوانا .

مليك من ملوك البحار فاجأه الموت ساعة الحب والحبور .
وقف الموت الى جانب سريره ، والملك معانق مليكة قلبه .
ناداه الموت ، فنهض الملك مسرعاً وقد ارتعشت جوارحه وامتقع
وجهه .
نهض مسرعاً ملبياً ، فتسربل بافخر الارجوان ، ولبس درعه
وخوذته ، وامتشق حسامه وركب مركبه ، فاضرم فيه النار
واسلم شراعه الى الرياح .
خاض المركب عباب البحر محترقاً ملتهباً ، وعلى ظهره الملك ،
وعلى وجه الملك ملك الموت .
وكاني بالنهار هذا الملك الجبار .
انه يموت موتاً جميلا ، يموت موت اله من الهة الرومان ، متوجاً
بافخر التيجان ، وقد رصعه بابدع الحجارة ، مكللا باجمل
الازاهر التي تقدمها الارض الى ابن من ابناء اميرها الزمان .
بل تقدم اليه في الخريف ما اعطاها في نيسان .
ان في تاجه العجيب لمن الجواهر افخرها واغربها .
ان فيه لتمترج الالوان ، فمن زرقة الزمرد ، الى حمرة الياقوت ، الى
بياض اللؤلؤ ، وبينها تتموج صفرة الفيروز وبريق الماس .
كلها تذوب وتمترج حول راسه امتزاجاً عجيباً .
كلها تتموج وتستحيل اشكالاً من حال الى حال ، تسير مسرعة ،
سرعة البرق أو الخيال .

هناك منها سهول من الزعفران وربى سربلتها الاقاحي .
وهناك بساتين من الورد وجنات من السوسن ، وهـذا فراش من
القرنفل ، وذاك وساد من الجلنار .
كل تلك الازاهر وهاتي الجواهر سوّتها الشمس ونثرتهـا حول
حبيبها المشرف على الموت .
نسجت منها الاكاليل والتيجان لتزين بها ضريحه ، اذابتها لتغسل
ذراعيه ورجليه .
اجل ان كل ما على وجه الارض من الازاهر ، وكل ما في معادن
الارض من الحجارة الكريمة ، وكل ما في اعماق البحر من
اللؤلوء والمرجان ، تذاب الان حول النهار الذي قضى على
صدر الشمس لتزيد موته مجداً ، وغرامه جمالاً .
أوَ من اجل الموت كل هذا الجمال ؟
أوَ من اجل الموت كل هاته الازاهر والجواهر السماوية ؟
أوَ من اجل الموت تنشر الطبيعة عـلى الافاق عبيرها وشذاها ،
فتختم الفجر بمسك حبها ، وتضمخ الغسق بسوسن احزانها ؟

***

في القفص يهينم البلبل ، وفي الاودية تحشرج الرياح .
قد اكفهر جبين صنين واستحالت الالوان البهية قطعاً من الليل .
تبدد طيب الرياحين في الفضاء ، وراء الغيوم السوداء .
سقطت المدن المنورة واضمحلت ، وولت العرائس الراقصـات و

غاصت الجزر الفضية في البحار، استحالت البحيرات الذهبية
بركاً من الزفت، وسكب الليل منه كاساً شربها الموت .
أواه قد دفن النهار — دفن في ضريح من الماء ، مكفناً بكفن
نسجته يد الليل من نور اقمار السماء .
وقد سكت البلبل في القفص ، وسكتت في الاودية الرياح .

الفريكة في ١ شباط سنة ١٩١٣

الاناشيد الثلاث

— من كتاب خالد —

وضعه المؤلف باللغة الانكليزية وهو مقسوم الى ثلاثة اقسام عنوان الاول « في السوق » والثاني « في الهيكل » والثالث « في كل مكان » وقد افتتح كل قسم بانشودة : رمز فيها الى معناه . اولها وهي فاتحة القسم الاول : (الى الانسان) والثانية (الى الطبيعة) والثالثة : (الى الله)

الى الانسان

مهما جزل خيرك ، ومهما تفاقم شرك ، لا ازال اخاك . مهما عليت في مدارج الحياة ، ومهما تسفلت لا ازال اخلص لك ، وأؤمن بك ، وأحبك . أفلست عالماً بما فيك ، بما يأسرك ، وبما يناديك ؟ ألم تدمني تلك انبراثن ، أولم تشفني تلك الاجنحة ؟ تعال اذاً ، تطلع الى العلياء . ها هو الهيكل الكلي الاكبر وقد جعل محطاً لنا لا محجة .

ولقد تشيدعند معالم المشرق والمغرب ، فوق الجبال المشرفة على الغرب تحتها وعلى الشرق . هيكل الامم جمعاء لا تُعبد فيه آلهة كاذبة باطلة . فان آلهة الفلسفة واللاهوت والآلهة التي صورها الانسان على صورته البشرية الفانية وآلهة الكهان والانبياء لمدفونة كلها تحت ينبوع الهيكل وقد غدامذبحاً ومحراباً — ينبوع الهيكل الذي تتدفق منه روح بارينا الازلية — بارينا المحي

المميت ، يغضي الطرف حين تنشب البراثن في قلبنا ، ويبتسم حين تظهر الاجنحة في جروحنا . وحقاً ان رب الـدموع والابتسام ربنا . وينبوعه في ذا الهيكل فائضٌ مدى الدهر . قف هاهنا وارتوِ ، قف ها هنا وارتوِ .

الى الطبيعة

ايتها الام الازلية ، السماوية الجهنمية ، المكتنفة الاكوان ، المغذية أحياءها ، الملتهمة ابناءها ، اني لك ابداً سرمـداً . ايتها الآلهة المتوجة بالنجوم ، المنتعلة الدرر واللآلي ، اني لك ابداً سرمداً ولئن كنت وليد هزيك وجيشانك ، او ثمرة من ثمار احشائك ، او شعاعاً روحياً من نورك ، او فلذة صماء عمياء كونت من دمعك وابتسامك ، او يراعة آبدة من العقل الذي فيك او في ما فوقك ، فاني لك ابداً سرمداً . ها انا ذا امامك ، أخر ساجداً عند قدميك ، اسلم نفسي وكلي اليك . المسيني ايضاً بقضيب سحرك الالهي ، اطرحيني ثانياً في بودقتك السرية ، أعدي صنعي ولا تحرميني مما فيك شيئاً . اكثري فيَّ من سكينة جبالك ، وسمو سمائك ، وهول بحارك ، وقدس احراجك ، وصفاء ينابيعك ، وشمم أرزك وثبات الراسيات في ارضك . عانقيني واهمسي في اذني بعض اسرارك . أملئي حواسي وكياني من نفحاتك ونسماتك . افتحي امامي اعماق روحك المخيفة الهائلة . اطرحيني على صدر عواصفك يسرِ اليَّ بعض ما فيك من قوة وعز وعظمة وجلال . اغمسيني

في مغيب شمسك علني افوز ببعض شيء من الهيات فنونك . انشديني نشيد السر ايتها الام الازلية . كأساً من حبك السماوي الجهنمي ، فاني لَاقبل الرأفـة والعسف منك لِاعرف السر في عسفك ورأفك . امسحيني بزيت البداهة المقـدس لاظل قيناً لك . ولا تصديني ولا تجفيني ، فيضمحل فيّ الصميم من الحب ، الصميم من العطف والمبرّة . يا ايتها الام الازلية مليكة العرش الازرق والقبة الزرقاء ، انى ابتهل اليك، واقبل رجليك، واطرح بنفسي بل بكاي لديك، ولست متشوقاً الى ما عسى ان يكون ومنك . فلئن صرت مجمرة في يد كاهنك الاكبر غداً ، او بخوراً مني في المجمرة ، او يراعة في هيكلك ، او سراجاً مطفياً في محرابك او لو صرت كوكباً في منطقتك ، او شمساً في تاجك، او لؤلؤة في نعلك ، لتريني قانعاً راضياً لانني متيقن ان ذلك خير كله وسلام .

الى اله

عبثاً طلبتك ايها الرب الاله في اديان الناس ، وعبثاً بحثت عنك في سرادب عقائد الناس ، وعبثاً كنت انادي واناديك كثيراً في مساجد الناس . ولكني لقيت في كتب العالم المقدسة بعض آثار سماوية طامسة . فلقد توضح لي حرف ساكن من اسمك في

« الفيدا » [١] وحرف في « الزند آفستا » [٢] وحرف في الانجيل وحرف في القرآن . اجل وفي كتاب الجمعية العلمية الملكية وفي سجلات جمعية المباحث النفسية بعض الحركات التي لا يحسن الجنس البشري الطفيل ان يحرك بها اليوم الاحرف الساكنة المركب منها اسمك . وانى لامم الارض ولم يزالوا في طفولة الحياة يلكنون ويتلعثمون ان يحسنوا النطق باسمك ، ناهيك بادراك كنهه ؟ ممن تجيئنا أحرف العلة التي بدونها لاتلفظ ولاتفهم الاحرف الساكنة في الكتب المقدسة ؟ من يهدينا الى تلك الهمزات همزات الوصل الالهية التي تجمع بين الكواكب البعيدة المتقابلة في اطراف الافلاك السماوية ؟ فلقدخطت على نقاب السر الابدي كلمات وامحت ، ثم خطت وامحت . وكل امة من امم الارض المتمدنة فسرت حرفاً من هذا النبإ الطامس العظيم . ولكن الحركات وهمزات الوصل التي لا بد ان يأتي بها علماء المستقبل والانبياء لتحيي جموداً في احرف الكتب المقدسة الساكنة وتبعث فيها سلاسة الماء والهواء . وتزيل اللكنة من لسان هذا الجنس البشري الطفيل ومن قلبه .

خالد

---

(١) كتاب من كتب الهندوس المقدسة

(٢) كتاب ازدرشت واضع ديانة المجوس قديماً والفرس (Parsis) اليوم

هجروها [1]

هجروها وبنات الهديل ينحن على آكامها .
لعنوها وجروحهم مضمدة باعلامها .
في اجمل بقعة من اصغر عوالمك ، تحت اقدس الابراج من سمائك ،
حول اعذب الموارد في خير مروجك ، بين انقاض دفنت
فيها انوار وحيك ، جلست هنيهة استريح .
اسندت رأسي الى جزع ارزة وارفة الظلال تقبّل اغصانها بقية
عمد هيكل خرب قديم .
وسمعت اصواتاً شبيهة باصوات رياح الشتاء في مقابر الجبال .
وبدت اصحابها كالاشباح يضجون في الانقاض ويولولون ،
ينعرون ، ويكبرون ، ويقتتلون .
وبينما هم كذلك واذا بحية جميلة على عمود من المرمر تشير برأسها
الى بيت تحت العمود من العنكبوت .
نظرت الى البيت فرأيت الرتيلاء تحوك اخياطها آمنة فيه ،
وحيات صغيرة تلعب حوله ولا تؤذيها ولا تؤذيه ، ورأيت
الاشباح يقتتلون فيهدمون الاكواخ التي ابتناها الانسان

---

(١) تليت في الحفلة التي اقيمت للشاعر الكبير خليل المطران في مصر

في الانقاض .

اشباح الماضي يبنون في اخربة الماضي ويهدمون ما يبنون .

فاستوت الحية على عمود الهيكل وشرعت تقول: ويل الانسان اذا فكت في الظلمة قيوده ، ويل الامم اذا اطلقت في الليل سجناءها ، ويل البلاد اذا قدست فيها سيادة هي كالظل في رواق الهيكل بل كطيف الموت في انقاض الحياة .

هجروها والحية تندب اطلالها .

لعنوها والعنكبوت آمن في ظلالها .

***

سمعت قرقعة القيود فظننتها صليل السيوف والرماح .

فابتسمت الحية واومأت اليَّ ان اتبعها .

سرنا بين الانقاض حتى خربة الهيكل فدخلناها واذا فيها الوف من الرماح والصلبان مكردس بعضها فوق بعض .

وفي الزاوية قناة رمح وبقية صليب تحوك الرتيلاء حولهما بيتها السِري العجيب .

فقالت الحية : اني لأرى ما لا تراه

فقلت : وماذا ترين ؟ فقالت : ارى زنبقة نامية فوق الصليب محنية فوق الرمح تقبله ، وارى وردة حمراء في الرمح تنوّر فوق الصليب .

وعلت اذ ذاك اصوات الاشباح في الاطلال فقالت الحية : واني لَاسمع ما لا تسمع

فقلت : وماذا تسمعين ؟ فقالت : اسمع صوتاً يقول :

وهذي قيود الجهل فكتها يد الاطماع .

وقيود الفاقة حطمتها انياب الجوع .

وقيود الاستعباد قطعتها سيوف الضلال .

وقيود الدين اذابها الصداء .

وقيود الجور كسرتها الضغائن والاحقاد .

واما ضمير الامة فلم يزل في قيوده ونفسها لم تزل راسفة في الاغلال .

هجروها والفتنة تنفخ في نارها .

لعنوها والليل ينسج في دارها .

***

رأيتهم خارج المدينة ينحبون ، سمعتهم تحت اسوارها يجدفون .

اقتربت منهم فزجروني ، بعدت عنهم فلعنوني :

قالوا : انت منا ولست منا .

وقالوا : انت معنا ولست معنا .

فقلت : حقاً ما يقولون . وسرت في سبيلي بعيداً عن الهاجر والمهجور اردد قول حية الاطلال واتأمل الرتيلاء التي تحوك من قلبها بيتاً للرمح والصليب .

هجروها وآمالهم مكفنة باعلامها
لعنوها والبرق يشق غيوم اثامها

***

والشهب في الظلمات ، والذئاب في الغابات ، ورماد المحرقات ،
تحت انقاض الخرافات ، وعذارى الهيكل الباكيات ، ان
الهلال والصليب ليحترقان تحت قدمي رب السماوات ،
وقد مال بوجهه الى البرابرة في الصحارى والفلوات .

ربي ، ان في امتي لبقية صالحة .

ربي ، ان في بلادي لمطلعا لم يزل عامرًا بانوارك .

ربي ، ان على ضفاف النيل لعرشاً حوله شموع العلم والهدى نيرات .

ان في ارض فرعون لبقية روح حية علمية ، طاهرة زكية ،
تبهج الناصري وتثلج قلب الهاشمي .

انها لحية في الاداب ، زكية في انوار العلم ، عالية في الفنون ،
طاهرة في إمارة الشعر وامرائها .

ما رأيت ملكا للسيف يدوم ، ولا سيادة تعزز بغير البر والعدل والحجى .

ان لشمس اليقين غيبات وعودات ، ولآمال النفس هجمات ويقظات .

وفي ترب الحياة بزرة وان تراكمت فوقها الف خريف ، وثلوج

الف شتاء ، تظل حية طيبة يسمع تنهداتها الشاعر ويرى النبي نور شذاها . تشرق شمس يوم ما فتذيب الثلوج ، فتهب الرياح ، فتنتثر الاوراق ، فنسمع اذ ذاك ما يسمعه الشاعر ونرى ما يراه النبي .

ليهجروها حانقين ضالين ، ليلعنوها يائسين قانطين .

***

سرت في طريقي انشد مجداً لا تي بعيدا ، فسمعت على ضفاف النيل لصوت عصر المأمون صدى جميلا جديدا .

ورأيت الشاعر والفيلسوف والاديب الى جانب الامير جالسين ، وعلى انقاض هياكل الظلم والخرافة معاهد تشيد للعلوم والفنون والاداب .

فقلت في نفسي وهل تحقق حلمنا ايام آياتها اعجب من اعاجيب الموحيات فتمجد نفحات الشعراء ، وتعزز شوكة الامراء ؟

ويسير الفريقان في طريق واحدة الى محجة واحدة ، وتصبح مصر كعبة العلماء ، وقاعدة ملك النبوغ والذكاء .

اجل ان دولة العلم والادب لاعظم شأنا ، واسمى مجدا ، واثبت اعلاما ، من دولة النار والسيف والدماء .

الفريكة : نيسان سنة ١٩١٣

الشرق

– تمهيد –

تتمثل في هذه القصيدة حالة الشرق الحاضرة في ظل تقاليده وعاداته تمثيلًا يشمل بعض الاشارات من لفظ ومعنى تقربه حياً من بصر القاريء وبصيرته . ولكن القصيدة لا تحيط بالشرق كله . وقد تنحصر بالشرق الاوسط والشرق الادنى لما للاسلام فيها من حرمة وسيادة . ويسمع للهند فيها صوت شديد تختلط فيه اصوات الماضي الجامد باصوات الحاضر الثائر لما للاجانب والكهان في الهند من السيادة والنفوذ . والشرق بين الاثنين حائر اليوم . تتنازعه عوامل العلم والدين فيثور تارة وطوراً يستتربه الفتور فيعود الى القديم الجامد وعينه في الجديد اللامع الخلاب . وبكلمة اخرى ان الشرق يتكلم فتسمع في كلامه صوت الشاعر وصوت الفيلسوف وصوت الامير وصوت الصحافي واصوات الكهان والعلماء ـ أم أم ! الله الله !

والعجيب الغريب ان ذكاء بعض الادباء والشعراء في مصر كبا كبوة عند هذه الكلمة التمثيلية فاستعاذ بالله من طمطانيات الشعر المنثور واعتصم منها بشيء من الادب القديم العقيم وباشياء من السخافات في النقد والمبتذلات .

١

انا الشرق .

انا حجر الزاوية لاول هيكل من هياكل الله ولاول عرش من عروش الانسان . لذلك تراني محني الظهر ولكني قويم الرأي ثابت الجنان .

انا جسر الشمس .

من اعماق ظلمات الاكوان الى الافلاك الدائمة الانوار تصعد كل يوم على كتفي وتكافئني مكافأة جميلة .

اجل ان في جيوبي ، وفي يدي ، وفي نفسي من ذهب الفجر ما لا نظير له في معادن الارض كلها .

تزودني الشمس للترحال ، وتزود مني البصر ايضاً والجنان ، وانا على ثباتي في رحله دائمة ، كالكواكب لا تبصر حركاتها .

ان اول القافلة ، قافلة نفسي ، ليتصل بالجوزاء .

وان آخرها – لست ادري اليوم اين اخرها .

قد يكون واقفاً مستكشفاً في ابواب ليفربول .

او نائماً تحت عرائش الياسمين في سمر قند .

او جاداً على ضفاف النيل .

او ضائعاً في السكة البيضاء في نيويرك .

ولكني قنوع رضي مطمئن ، لاني وان كنت لا ارى ساقة القافلة فاني مبصر قادتها .

واني لاسمع طنطنة الاجراس عند المساء .

وصوت الرسول يجيئني كل صباح مسلماً .

وفي يده ثوب جديد البسه ليومي

نسج من لا ينسج الا لصاحب الجلال ، رب الليل والنهار



انا الشرق

قد جئتك يا فتى الغرب رفيقاً .

فكن صبوداً ، اذا كنت لا تحسن السكون .

اني مثقل احمالاً لا تراها العين التي ترى الاقطان وتشتهي الثروة والجاه .

ولو رأت عيناك بعض ما انا حامل لخررت ساجداً ، ولرحت شاهداً .

وفي جيوبي ايضاً وفي يدي اشياء من حقول النفس ومن جبالها ، واشياء من اغوار الحياة .

اشياء ترضي الله ، وترضي الانسان ، واشياء لا ترضي لا الانسان ، ولا الله.

منها ما اود نبذه لو استطعت دون ان اضر بسيدي صاحب الجنود والمدرعات .

ومنها ما اود اخفاءه لو اني لا استحي من نفسي الباصرة .

ومنها ما اود اصلاحه ، لو كان لصناع هـذا الزمان ضمير يشفع باليد الرجفة والبصر الكليل .

وهناك اشياء يا فتى الغرب ، لك فيها الحبور والسعادة .

عندي ما يسكن نفسك المضطربة وينعشها .

عندي ما يشفي ما في قلبك من امراض التمدين .

عندي ما يبعث فيك عدلاً يتجاوز استياءك ، وحرمة لما يقدسه سواك .

عندي ما يقيدك رجلاً ويداً لتهدأ وتستريح ، فترى الكون

والعقل منك مطلق والقلب مطمئن ، وتتأمل كذلك
اسرار الوجود .

٣

انا الشرق .
لي عرس في الليل القديم البهيم لا تفارقني ابداً .
ولي ايضاً في كل يوم بكر من الحسان .
تجيئني ممتطية جواد الفجر ، لتخبر البصر مني والجنان .
اراها فتهتز جوارحي طرباً .
وارى صباي امامي يهتف للفجر .
لجلال الفجر الذي يجري في النفس مثل سلسبيل فضي في
الجبال .
فتبدو خلاله الاعشاب الخضراء . وهي تعانق الحجارة والصخور .
فتبعث فيها روحاً يستحيل التجويد عندها نشيد حب وتشويق ،
نشيد وطن يستفيق .

٤

انا الشرق .
انا شبح يا فتى الغرب الباسل .
شبح في موكب الزمان – في موكب الحياة الدنيا .
ولكن للشبح صوتاً بل اصواتاً تسمع شيئاً منها اليوم وستسمعها
ملياً غداً .

اصوات متضاربة ، متنافرة ، الا انها من قلب واحد ، لها
صدى في هياكلي كلها ، ولها صدى في كليات بلادك .
صوت يضج في الخلوات ويتراجع في الاماكن المقدسة .
وصوت يحدو في الصحراء ويملأ جبال تقواي سكوناً طيباً .
وصوت يهمس في اذن ادواتك رغبة جديدة مستطلعاً قصدها
ومغزاها .
وصوت يتماوج سلاماً على وجه المياه في الانهر المقدسة .
وصوت يحن شوقاً في ظلال الحرمين .
كما انه يئن ويطن في المنابر الجديدة ، منابر الوطن .
صوت ينشد « نرفانا » [1] لالهة من ذهب ذي عيون من زمرد
جاحظة .
ويتغنى بـ « كرما » [2] وبالقضاء والقدر في اكواخ البؤس
والاثم والشقاء .
وصوت يهتف استحساناً في ملاهي بلادك يا فتى الغرب
وفي مراقصه .
كما انه يحدث في قهواتك ، حول كاس من الخمر ، باحدث

(١) « نرفانا » اي سماء الهندوس والبوذي او ما تصبو اليه نفسه من السكينة الدائمة في اللانهاية .

(٢) « كرما » اي ما هو مقدر على الهندوس من سعد او شقاء . او ما يتبعه بموجب مبدأ التقمص من ثمرة اثم له سابق او فضيلة .

رأي علمي في الجاذبية ، وباحدث رأي سياسي في عصبة الامم .

٥

انا الشرق .

احتمي من العالم بنفسي .

استعيذ من العالم بالله .

« ام . ام ! » — الله ! الله !

ساعة ، ثم سكرة ، ثم آية .

آله عينه سوداء[٣] ، وشيطان عينه حمراء[٤] ، وملك عينه زرقاء[٥] ، يلبسون الحياة ، ويعيدون الى قديم الحياة .

يرقصون في ظلال البنيان والنخيل .

ويحرقون البخور في هيكل احلامي .

ويهمسون ، وينشدون ، ويصيحون، طالبين الاطلاق — الاطلاق — اطلاق النفس ، والعقل ، والروح ، والجسد .

يهمسون : « واه أم ، واه أم ، واه ! »[٦] ويرقصون .

---

(٣) آله عينه سوداء اي رب الدين

(٤) شيطان عينه حمراء اي رب السياسة .

(٥) ملك عينه زرقاء اي رب الادب والشعر

(٦) الفاظ يرددها كاهن الهندوس في صلواته كما يردد الدرويش الله الله مثلاً في حلقة الذكر .

يصيحون : «لبيك اللهم لبيك» ويسجدون .

ثم في ساحات المدينة يخطبون ، وبالابواق ينفرون ، وعلى
الثورة يحرضون .

« لبيك اللهم لبيك »

« واذكروا الرجيم الاجنبي وان كان حاملا انجيلا » .

« ولا تخافوه وان كان حاملا مدفعاً رشاشاً » .

« ولا تعاملوه وان كانت بضاعته هبة »

« واه أم ، واه أم ، واه ! »

« لبيك اللهم لبيك »

ساعة من الابتهاج الروحي حول سرير الوطن ، يتلوها
استسلام طويل تحت عرش الله .

ساعة ، ثم سكرة ، ثم اعجوبة .

ابحث عن ذي العين السوداء ، وذي العين الحمراء ، وذي
العين الزرقاء ، فلا اجدهم .

بل اسمع ما يشبه اصواتهم في سراب ال « كرما » وفي
فيافي القضاء والقدر .

انغاماً شجية روحية تذيب الشهوات اشواقاً ، وتحوك للنفس
احجبة من خيوط الشمس ، وتفرش لها طريق الفرقدين
ازاهر سرمدية .

ولكني وا أسفاه ! استغرب ذي الانغام اليوم ، ولا استحبها

بالاخص عندما اطالع يا فـتى الغرب صحافـة بلادك الفضاحة التي تنبئني بما لطياراتك من الصولة والاقتدار ، وكيف يمكنها ان تنسف اساطيلك البحرية وتبيدها .

٦

انا الشرق .

عندي فلسفات ، وعندي اديان ، فمن يبيعني بها طيارات .

اتحسبها سفاهة مني ، او تظنها تجديفاً ؟

قد يكون ذلك ، قد يكون .

انا نفسي اجهل اليوم صوت نفسي ، صوت المجالس ، وصوت المنابر ، وصوت الصحافة .

اجل ان لي ايضاً صحافة فضاحة يا فتى الغرب .

ولي منابر قد لا ترضى بها آلهة اجدادي .

ولكنها منابر جديدة ، حريتها فتاة لا تعرف التمويه .

فلا تسمعك ما يسر ان لم تجئها بما تريد .

وهناك سر اهمسه في اذنك يا فتي الغرب .

ليست الاديان والفلسفات ما تظنها .

وليست ما تظن اني اظنها .

فلا للحراثة هي ، ولا للتجارة ، ولا للسياسة ، ولا للتقشف .

انما الاديان والفلسفات كمصافي الماء .

هي مصافي الحياة ، تصفيها في الاقـل من بعض الحشرات والجراثيم .

٧

انا الشرق .

عندي تذوب الالوان كلها وتمتزج ، فتتماوج نوراً بعضها في بعض تحت ريشة رسّام الزمان .

ألوان الغروب ، والوان الفجر ، والوان الليل السرية ، لما كلها افق واحد عندي ، وسماء واحدة .

من الاخضر الناضر لذي النبوة التي ترزع الثريا بذورَها ، الى الاصفر الفاقع لذي السر الذي يخلع العذر والعـذار ، الى الاحمر القاني لذي ارادة لا تذعن لبشر او جن ، الى الازهر الباهر لخيال يسحر الساحرين بياناً —

هذا سلم من النفسيات لا تجده عند سواي .

وهناك الارجوان لسفاهة تجلس عـلى العرش ، والزعفران لمجد هوت عروشه .

والجلنار يتماوج ظلالا حول عرش الاهواء والشهوات .

والرماد المنتثر لما كان في سماء الفكر كوكبا نيرا .

والاسود القاتم لدمقراطية شابة تحمل عصا التأديب .

والابيض الناصع لمصرية تحمل غصناً من النخيل .

كلها تمتزج في افاق نفسي .

وتذوب في سماء امالي ٠

وتستحيل خمراً في كأسي ٠

اجل ان خمر الاجيال الغابرة ، وخمر الاجيال الحاضرة ، التي لم يحسن تصفيتها الزمان ، لتملأ الكاس التي اشربها كل يوم ، فتعيد الي روح النبوة القديم المجيد ، وتثير في الم الذكرى ، وتجدد في حب الجهاد ٠

مصر في ١٤ فبراير سنة ١٩٢٢

مصر [1]

١

هي اكبر الشرقيات الباسمات للدهر ، وهي احـدث الشرقيات الناهضات .

هي أول من هزت الشمس سريرهن ، وأول من قبلهن الليل على ضفاف النيل .

هي أول من لعب في ذرى الصناعة والفنون ، وأول من رقص والقمر تحت النخيل .

هي أول من بنى ركناً للعلم ، وبيتاً للحضارة ، وأول من شيد للحيوان هيكلاً وللموت قصوراً .

هي أول من نطق في قلب العالم كلمة العبادة والابتهال .

هي اول من اضرم في ليل الحياة نار الايمان .

هي اول من نحت تمثالاً جميلاً ، ورسم ذكراً واملاً للانسان .

هي اول من كون من شتات الغيب عالما حقائقه اغرب من خرافاته .

هي اول من نصب للحق الانصاب ، واحرق البخور للخرافات .

(١) تلاها المؤلف في الحفلة التكريمية التي اقامها له احمد زكي باشا في سفح الاهرام في ٢١ فبراير سنة ١٩٢٢ .

هي اول من شيد للخيال معالم تباهي معالم الحق جلالاً وخلوداً .

هي اول من حمل ميزان القسط ، واول من استرق العباد .

لها الصولجان المرصع ماساً ، ولها السوط الملطخ دما .

هي اول من قال للموت : لا ، واول من قال للحياة : نعم .

لها في الموت حياة ، ولها في الحياة المآثر الخالدات .

هي مصر .

آية الزمان ، ابنة فرعون .

معجزة الدهر ، فتاة النيل .

٢

هي في هيكل الحب آلهة تسجد لها آلهة الامم .

هي في هيكل الجمال ربة لا تخضع لآلهة الزمان .

ورد خديها من وادي الصفاء ، وزنبق جبينها من جبال البر

وذهب شعرها من معدن الفجر ، وقرمز فمها من بساتين الخلود .

هي في السراديب مشكاة فيها مصباح يضيء ، وهي في الفضاء نار على علم .

هي ابنة رموز اسرارها في فم العاصفة ، وفي قلب النسيم .

لها صوت يهيج حتى المخيل الى الخيال ، ويبعث حتى في الرمال

شوقا الى النيل .

هي ربة العشق ، وربة الموت ، وربة الخلود .

هي مصر .

آية الزمان ، ابنة فرعون .

معجزة الدهر ، فتاة النيل .

٣

هي في قلب العالم سيدة الايوان الجديد – ايوان البر والحق ، ايوان الحرية والحجى ، لسانها عربي ، وقلبها شرقي ، وعقلها غربي .

لها في ظل الهرم اثر خالد ، ولها في ظل تمثال الحرية زاوية للحكمة والعدل .

هي التي شاركت ايزيس هيكلها ، ورعمسيس عرشه .

وهي التي تتغنى اليوم بانغام النور الذي كلل هذا الصباح راس ابي الهول .

لها صوت سمعته قبل الهرم الصحراء ، ونسمعه اليوم نحن الواقفون في ظلال الاجيال التي شاهدها ذا الهرم .

من ضفاف النيل ، الى ضفاف بردى ، الى شاطىء الفرات ، الى وادي الكنج ، صوت مصر يتماوج كالنسيم ، ويزمجر كالرعد ، ويخترق ظلمات الجمود كالنور .

ان كلمة مصر لكلمة العرب ، وان كلمة العرب اليوم لغيرها بالامس ، ولغيرها غداً .

ولكنها ابداً كلمة مصر ، مصر الخالدة ، مصر الفراعنة ، مصر المماليك ، ومصر « الزغاليل » .

كلمة علم تنطق بها مصر تنير مصابيح الهدى في الامم العربية ، الدنية والقصية .

كلمة عطف تفوه بها مصر تنعش قلوباً خدرها ريب الزمان .

كلمة حق في وادي النيل يردد صداها في الشام وفي بغداد بل يتراجع صوتها بين طنجه وسمرقند ، في كل بلد عربي القلب واللسان .

آية الزمان ، ابنة فرعون .

معجزة الدهر ، فتاة النيل .

٤

حيتني بغصن من النخيل ، وبزهرة من السوسن .

اسمعتني نشيداً سمعه قبلي كاهن ازيس ، واديب الرومان ، وشاعر العرب .

همست كلمة في اذني ملأت فؤادي من فيضها القدسي — فيض الذوق والشوق والهيام .

فتحت لي باب خدرها فبهرتُ نوراً ، فسكرتُ حبوراً .

ذكرت يوماً كان فيه ابن مصر عبد الملوك وهو اليوم سيد تنحنت له السلاطين .

ضحكت مصر في ليالي النغم ، وبكت في فجر الابتهاج .

وضحكت لضحكها ، وذرفت لدمعها الدموع .

ضحكنا سخرية ، وبكينا سروراً .

جالستني مصر يافرعون ، وهي تذكرك وتقول : هل كان في من شيدوا الاهرام رجل واحد حر ؟

بسمت لي مصر يا فرعون ، وهي تذكرك وتقول : هل في مصر اليوم رجل واحد يطيق العبودية ؟

تبارك ابناؤك يا مصر ، وتباركت بناتك الناهضات .

ان فيك ينبوع سر التجديد والخلود .

ان سحرك يامصر ليبعث الحياة في سكان اهرامك .

ان فضلك يامصر لينطق حتى ابا الهول .

ان روحك يامصر لكالندى في الاكمام ، بل كاشعة الشمس تكلل الندى .

ان جمالك يا مصر لكالخمر في كأس من النور ، بل كالنور يسير على وجه النيل .

آية الزمان ، ابنة فرعون .

معجزة الدهر ، فتاة النيل .

مصر في ٢٠ فبراير سنة ١٩٢٢

رب العراق [1]

١

اصافحه والقلب في يدي .

احييه والروح على لساني .

اكبره وكلي كلمة الاكبار .

اقف امامه فتنكشف امامي اعاجيب الزمان .

انظر اليه فتنظر منه الي ربات الاقاليم .

المس ردنه فيرتعش جسمي ، فينتعش ، فيهتز ابتهاجا .

ولاعجب وهو كثير الاطوار غريبها .

يكلل رأسه السنديان ، ويجثو عند قدميه النخيل .

تقيم له الجبال الهياكل ، وتنبسط لقدومه السهول .

يقبل الثلج فمه ، وتقبل الرمال اعطافه ، وتمتزج انفاسه بالخليج والبحار .

له كلمة تخيف ، وله كلمة تثير ، وله اخرى تحيي وتميت .

وهو يسير في سبيله هادئاً مطمئناً.

يولي وجهه تارة الغرب وطورا الشرق ، ولكنه ثابت مستقيم في الحالين .

---

١) تلاها المؤلف في الحفلة التكريمية التي اقامها له الحزب الحر العراقي في بغداد

يحمل الخير من الشمال الى الجنوب .

من اقليم الى اقليم يجيء بفيضه ، ويتحول غرباً وشرقاً لتعم بركاته البلاد .

تقول له الجبال : اقرأ السهول سلامنا ، ويقول هو للسهول : اقرأي سلامي قحطان ومضر .

٢

هو رب العراق ، وهو حياته الخالدة .

عينه عين الدهر ، ولسانه لسان الزمان ، وحافظته حافظة الخالد من الاكوان .

قد شاهد من الممالك ما قام منها بالسيف ، وما قام منها بكلمة سحر حلال ، وما قام منها بالعلم والفنون .

تلألأت على ضفافه انوار السرور والاهواء ، وجرت في ظلال نخيله مواكب العزة والمجد — الى حين .

ثم انطفأت الانوار ، ودرست القصور ، واضمحلت آثار العظمة كلها — الى حين .

وظل هو سائرًا في سبيله هادئاً مطمئناً .

٣

هو رب العراق ، هو حياته الخالدة .

كلمة سحرية اوجدت في ارضه التوحيد ، وبعثت من فيافيه
صدى التكبير والتمجيد .

كلمة سحرية استعادت من بابل علمها ، ومن اشور مجدها ،
واستعربت من اداب ايران ، وكللت الثلاثة بالسامي من
الايمان .

كلمة سحرية ، كلمة الاسلام ، احيت دار السلام .

فنشأت فيها معاهد العلم والفنون ، ونبغ الشعراء والمولدون ،
وظهر من الحكمة والادب كل كنز مكنون ، ومرحت في
ظلال غرائبها العبقرية وشقيقتاها الخيال والمجون .

كلمة سحرية ، نشأت بعدها « الليالي العربية » [1] التي اصبحت
للامم جمعاء .

بل هي « الليالي البشرية » ، بنات العبقرية العربية .

بل ليالي النفس ، التي ينعشها ابداً الخيال ، وتحييها ابداً الامال .

لله انت يا بغداد الرشيد ، فلا يزال ذكرك يعطر ارجاء الاداب
الغربية .

لله انت يا بغداد المأمون ، فلا يزال نورك يشع بين انوار العلوم
البشرية .

لله انت ما كان اقصر يوم الحكمة فيك ، وما كان اقصر ليالي

---

(١) اي كتاب الف ليلة وليلة

السرور .

وكل عزيز قصير الاجل .

كل عزيز مطمح الصائلين والطغاة .

سقطت بغداد ، نهبت ، دمرت ، ضربت عليها الذلة ، خيم فوقها الليل البهيم ، فنامت نوم الاسير وهو يئن من وطأة الكابوس .

ثم نامت نوم المثقل جسمه بالمخدرات .

ولكن الكارثة الاسيوية لم تغير مقدار ذرة في من هيكله في الجبال ، وعباده في السهول .

فظل سائرا في سبيله هادئاً مطمئناً .

٤

ان رب العراق ، مثل آلهة الهند ، ليتجسد من حين الى حين في بشر كريم .

من حامورابي ، الى اشور بنوبال ، الى نبو كد نصر ، الى المنصور والرشيد والمأمون — هذه مراحل سعيدة ماشكا الاقصرها الزمان .

ثم لبس الزمان الحداد ، ودام الحداد الف سنة .

ورب العراق يسير في سبيله هادئاً مطمئناً .

٥

ارب العراق !

جلست الى جانب طريقك ، جلست يا دجلة على شاطئك ، ونور القمر يلبس بغداد اليوم ثوباً من السحر مؤنساً باهرا .

جلست يا دجلة على شاطئك، ونور الشمس يكشف عما في بغداد اليوم من اشباح الحياة ، وقديم المحزنات .

جلست على شاطئك يا دجلة ، وظلمة الليل تحجب بغداد وتعطف عليها ، فلا تخدعها كالقمر ، ولا تفضحها كالشمس.

وسمعت اذ ذاك صوتاً يقول : ليحي قحطان ، ليحي العرب .

وسمعت صوتاً اخر : لتحي المدنية ، وليحيَ كل من اشعل مصباحا من مصابيحها ان في الغرب ، وان في الشرق .

وصوتاً ثالثاً ، اشد وقعاً من الاثنين يشق بعينه الظلمات :

ورب العراق ، ان قلب العراق حي الى الابد .

ورب العراق ، ان روح العراق لتُبعث اليوم من ضريحها القديم .

ورب العراق ، لقد قرب زمن التجسد الجديد .

وسيتجسد ربك في هاشمي كريم ، يعيد مجد بني العباس الكرام وسيتجسد كذلك في امة ناهضة كريمة ، تضيف الى ذلك المجد ، مجدا رفيعاً جديدا .

بغداد في ١٤ ايلول سنة ١٩٢٢



رفيقتي (١)

هي رفيقتي في السفر ، بل هي المبتدأ في حياتي والخبر .
عرفتها في بلاد الغربة صغيرا ، وعشقتها شاباً ، وعبدتها كهلا ،
وامست في حياتي في منزلة ذات الحب والحكمة والحنان .
كانت اول من اشعل في طريقي مصباح الفكر ، واول من هداني
الى مروج الخيال ، بل كانت اول من استغواني ، فتغلغلنا
في ادغال الشك ، وخرجنا منها الى بساتين اليقين .
قالت عندما كلمتها : نعم ، ثم قالت : لا راحة لك معي ولا خير
في حياتك بدوني . فقلت : لا راحة لي دونك ، ولا خير
براحة بعيدة عنك .
هي عشيقتي المقصودة ، والهتي المعبودة ، ورفيقتي النصوحة
الودودة .
قبلنا قسمتنا كما نقبل الشمس ، وكما نقبل السموم ، دون ان
نمجد الاولى كل يوم ، او نشكو الثانية كلما قامت تصيح
وتنوح .
اقمنا في بلاد الغربة زمناً خبرنا فيه هناك حلو الحب ، ومر الجهاد .

---

(١) تليت في حفلة المعهد العلمي ببغداد

ثم رحلت ، والشرق محجتي ، وبلاد العرب منها قبلتي السعيدة .
سافرت من نيويورك وحدي ، ولكني ، عند ما مرت الباخرة
بتمثال الحرية ، احسست بيد تستوقفني ، وبصوت يعيد
اليّ الذكرى ، ويلحفني بالخجل والعار .
هو صوتها ، وهو وجهها ، وقد ازداد نورا وجمالا .

***

قالت وهي تبتسم : افلا تخجل من نفسك ؟ اتسافر وحدك الى
البلاد العربية ؟
قلت : اخشى عليك منها – من وعورة المسالك فيها ، من جمود
الافكار ، من تجهم النفوس ، من تعدد المذاهب ، من
وحشية البدو ، من ترفض الحضر .
فقالت والحنق يشعل لهجتها : ايعجزني ما لا يعجزك ؟ لا والله .
اما الترفض والتجهم والجمود والجهل فمن اجلها خصيصاً ارافقك
الان .
ولكنك لا تعرفين طبائع القوم وعاداتهم ، ولا تحسنين المداراة
والمجاملة ، ولا هم الفوا مثل صراحتك ، وقد تجرحهم
نصال كلماتك .
فاجابت ، وصوتها الهادىء يكمن الحب والغضب : خير لك ان
ترجع الى بيتك من ان تسافر وحدك الى البلاد العربية .
ان لي في تلك البلاد من احبوني ، من تعشقوني في الماضي ،

وابناؤهم اليوم يعيدون ذكراي ، ويتشوقون الى مرآي .
ان لي في تلك البلاد آثار مجد، تتوق الى زيارتها نفسي .
وان لي فيها قولاً جاءت ساعته ، وعملا قرب يومه ، وقصدا دنا اجله .
اما انت ، فقد تجاوزت الاربعين ، فنَمَّ صوتك ، ولانت كلمتك ، فما الفائدة اذن من زيارتك البلاد العربية ؟
لو كان لي ان ازورها وحدي لقلت لك : الزم البيت والكتاب وضع لوحة التعليم فوق الباب .
ولكني اخترتك رفيقاً ، فلا تكن عقوقا .
هي رفيقتي في السفر ، بل هي المبتدأ في حياتي والخبر .

***

هي الحرية .
جاءت تزور البلاد العربية ، وتزرع فيها بذورها الطيبة الصفية .
هي الحرية التي استمد منها الحياة ، وهي الحياة اوقفها على خدمة هذه الامة التي لا يجمعها اليوم غير امل وخيال .
هي الحرية رفيقتي ، شاهدتْ قبلَ ما شاهدت ، وسمعت كما سمعت ، وكان سرورها وكان حزنها اضعاف ما اعتراني من الحزن والسرور .
ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض ، وبكت في تهامة بكاء اليائس ، وضحكت ثم تأوهت في اليمن ، وجلست تستريح

في العراق .

هي الحرية تخاطبك ايتها البلاد العربية .

هي الحرية تخاطبكم يا اسيادي اصحاب العظمة والجلالة .

ايها الملوك والائمة والامراء والسلاطين ، ان في يدكم كنز انتم عليه اوصياء .

اذا صنتموه من الاجانب فلا تستهدفوه للجهل .

ان في يدكم ارثاً استحفظكم به الله .

اذا حميتموه من كل نفوذ سياسي خبيث ، فاحموه ايضاً من التعصب الذميم ، ومن روح الرجعة الوخيم .

ان في يدكم امة لاتعرف خيرها الحقيقي ، وهي لجهلها طعمة لكل صائل وكل نهاب .

اذا رددتم عنها الطغاة المستعبدين ، فلا تكونوا انتم من المستعبدين الطغاة .

ايها الملوك والائمة والسلاطين والامراء ، ان في كلمة واحدة اليوم حياة هذه الامة.

والكلمة لكم ، فهل انتم بها ناطقون ؟

الكلمة (الاتحاد) ، فهل انتم في امر واحد متحدون ؟

والامر الاول الجوهري (الصلح) ، فهل انتم بالصلح راغبون ؟

والصلح اساس الوحدة العربية ، فهل انتم في سبيل الوحدة مجاهدون ؟

والوحدة العربية اساس الحرمة القومية ، فهل من حرمة تعززون ؟

وحرمة الامة لاتعزز بغير العلم الصحيح ، فهل من معاهد العلم الصحيح تشيدون ؟

اذا كنتم تفعلون فانى ، انا الحرية ، اقيم بينكم وابشركم بمستقبل مجيد .

والا فسأعود الى اقصى البلاد ، والبس على بلادكم العزيزة الحداد .

بغداد في ١٨ ايلول سنة ١٩٢٢

العود الى الوادي [1]

انخت بمنعطف الوادي وقلبي يحدثني بالرحيل .
ارسلت في الاحراج والكروم رائداً لحب فعاد ينشد بلاد النخيل .
قلت : ولبنان ؟ فقال عليل .
ولكن الوزال سلم عليّ والسنونو رحب بي والصنوبر استبشر بإيابي .
فتيقنت انه بيتها ، وان كان الخادم من غير ذا المكان .
كلمته ، فاجابني بلسان لا افهم اللكنة فيه .
كلمته ثانياً ، فعلم من لهجتي اني صاحب الدار ، فادخلني البستان وتركني وشأني .
فبادرت الى البيت فاذا هو كالطلل وحشةً وسكونا .
فها الشوك وقد امتد الى اسكفة الباب . وها العشب وقد نبت خلال الاحجار في الجدران .
بيت ابكم ، اصم ، لا كوة مفتوحة فيه تسمع الصوت ، ولا شق في الباب يحيي الجاي .
باباً كباب اللحد قرعت ، فلم اسمع جواباً .

---

(١) تلاها المؤلف في الحفلة التكريمية التي اقيمت له في بيروت

فجلست انتظر لعل الاهل غُيّب او نيام .
جلست في ظل شجرة من الازدلخت نور زهرهـا فعطر طيبه الهواء .
وكان الاصيل، وكان النسيم اللعوب، فتساقط الطيب من الاغصان في حجر السكون كانه ذَوَب الشعر في قلب الليـل ، او شوارد الروح في بحيرة الاحلام .
وتغلب النسيم ، فنمت ، وقلبي يحدثني بالرحيل .

***

انتقلتُ من بستان في قلبه السكون والجفـاء الى بلد ضوضاءه تملأ الفضاء .
وسمعت اصواتاً تعددت النعرات فيها وتنوعت اللهجات ، من سجون الحياة في المدينة وفي الجبال .
اصواتاً تنادي وتستغيث ، واصواتاً تتأوه وتئن ، واصواتاً تصيح الويل والثبور ، واصواتاً تنجد في الجدال وتفور ، واصواتاً فيها تهديد ووعيد ، واصواتاً في المجالس لا تعلم ماتريد .
ثم سمعت صوتاً يهمس في اذني : أيدهشك ما تسمع ؟
قم بنا ، وليدهشنك ما سترى .
عرفت صاحب الصوت ، رفيق الاسفار والافكار ، فتبعته .
وقفنا في الباب ، فاذا بالخادم هناك يرحب بنا باسماً .
دخلنا البيت ، فاذا هو مشين بصور سخيفة في آطار مـذهبة ،

ومفروش بالكماليات الغالية من صناعة الغرب ، الا غرفة واحدة فيه لا تزال كما كانت يوم هجرناه .

فاستأنست عند وقوفي في الباب بحصيرها ومسندها ، بعمودها وموقدها ، بجلد الغنم حول الموقد والشمعدان ، وبما تلبد على الحائط وفي السقف من الدخان .

فهتفت قائلاً : هذا هو بيت امي ، تبارك بيت الامة .

مشى الخادم امامنا وهو يبتسم ويفرك يديه كفاً على كف كانه يقول : ان عملي حسن وستستحسنونه .

ووقف في الزاوية عند هيكل اشار اليه بيده اعجابا ، ثم قال : ترانا نحترم معابد الناس .

فراعني ما رايت ، واحزنني ماسمعت .

حزنت ، حنقت ، خجلت ، جزعت .

كانه لطمني بتلك اليد يده ، وذبحني بتلك الكلمة من كلماته .

هناك ، في ذاك الهيكل ، بين الشموع والدمن والازهار الصناعيه ، رايت الهاً مرعباً مخيفا ، الهاً شبيهاً ببعض آلهة الهند ، وحشياً فظيعا ، الهاً من آلهة الشر ، تعددت في جسمه الواحد الايدي والرؤوس .

وفي كل رأس عينان حمراوان تنظران الى الاخرين شذرا ، بل نقمة وانتقاما .

وفي كل يد خنجر يقطر دماً ، وفي مقبض كل خنجر نجمة رسمت

بالماس والياقوت .

كأنها رمز الثراء ، وبراءة من السماء .

ملت بنظري عن الهيكل ، واسرعت الى الباب ، وقلبي يحدثني بالرحيل .

***

رأيتها خارج البيت ، خارج البستان ، بعيدة من الهيكل ، جالسة واحزانها في قارعة الطريق .

عرفتني فقامت تلاقيني ، وفي خطواتها وهن وارتجاف .

جلسنا على صخرة ، في ظل تدنة هرمة ، يغرد في افنانها الحسون ، وبداعب حولها الفراش الاقاحي ، وينثر تحتها الهواء حرير زهر القرقفان .

وخيم علينا السكون . وسارعت الينا الهواجس والظنون .

— ظننتك سعيدة يا امي .

— خلتك تعلم يا بني .

— اصدقيني الخبر يا امي .

— لا تسأل سوءالا قد يحزنك جوابه .

— هل انت تعبدين ذاك الاله الفظيع ؟

— اسأل الخادم في البيت .

— وهل هو اعلم منك بما في فوءادك ؟

فابتسمت هزءا وقالت : هو عالم بكل شيء .

– وهـل في ذاك الاله الوحشي الفظيع ما يعزيك يا امي ، او يفيدك ، او ينعش املاً واحداً من امالك ؟

– اسأل اخوانك ، ابنائي ، اولئك الذين لا يخافون لا خـادم الهيكل ولا الخادم في البيت .

– وهل انت راضية عنهم يا امي ؟

فاطرقت ثم قالت : وهل تظنني راضية عنك يا بني .

ثم نظرت الي وكأنها تجيب على سؤال افصحت عنه عيناي : ذنبك الاول الهجر ، وذنبك الثاني العود الي .

– افلا تسرك اذاً عودتي ؟

– وما الذي جئتني به ، بعد هجر طويل ، من البلدان التي سحت فيها ؟

– جئتك بسكينة الدهناء والنفود ، تلك التي تملأ النفس ورعاً وخشوعاً ، فتزيل منها الهواجس كلها والهموم .

– لا تنفعني يا بني ، لا تنفعني .

– جئتك بقناعة البدوي ومروءته ، بشجاعة البدوي وحريته ، باستقلال البدوي واطمئنانه .

– لا تنفعني يا بني ، لا تنفعني .

– جئتك بالشمم العربي والاباء ، بالشهامـة العربية والوفاء ، ببساطة العيش وكرم الاخلاق ، بالجرأة والبطولة في الشدة وفي الرخاء .

– لا تنفعني يا بني ، لا تنفعني .

– جئتك يا امي ، بفكرة سامية من المدنية الاوربية – العمل الصالح اصح الاديان – وجئتك كذلك بحرية الافرنسي في ثورته ، وبنشاط الاميركي في عمله ، وبايمان الاحرار اجمعين بالحياة وبالناس .

– لا تنفعني يا بني ، لا تنفعني .

– وماذا تبغين يا امي ، ياروح الامة التاعسة الحزينة ، ماذا تبغين .

– رؤوس الآله الذي رأته عيناك – آله التفرقة والتعصب والشقاق – لا ابتغي اليوم سواها .

***

بعد برهة من الزمان ، وانا عائد من الوادي ، التقيت في الطريق بخادم البيت وخادم الهيكل – بذاك الذي يحترم معابد الناس وذاك الذي يرتزق منها ، وكلاهما حامل عصاة يتوكأ عليها .

فقلت . بعد ان سلمت : ما الخبر ؟

فقال خادم البيت : الهكم مات .

وقال خادم الهيكل : والويل للقتلة الكافرين .

قلت : والى اين الان ؟

فقال الاول : الى البحر . وقال الثاني : الى البادية .

قلت : والحمد لله ، وسرت في طريقي مسرعاً الى البيت .

فلما وصلت الى منعطف الوادي لاقتني امرأة خارج البستان ، ما عرفت منها ، اول وهلة غير الجمال .

بل هي فتانة هيفاء ، في حلة بيضاء ، وقد زينت شعرها الاسود باربعة ازرار من الورد ، وحملت بيدها قمقماً ترش منه ماء الزهر .

ادخلتني الدار ، فاذا فيها اربعة انوار باهرة الضياء ، ومرآة كبيرة تنعكس فيها ايآت على الحائط خطت بماء الذهب .

فقرأت الاولى : اربعة قلوب في جسم واحد .

والثانية : اربعة هياكل في قلب واحد .

والثالثة : اربعة حقائق في عقل واحد .

والرابعة : اربعة عقول في ذات واحدة .

وكانت دهشتي الكبرى ، وفرحي الاكبر ، في غرفتها الخاصة ، في الزاوية المقدسة ، في مكان الهيكل منها .

دخلت وهي اخذة بيدي وتقول : قد رأيت معبدي الجديد يا بني ، وساجمعك الان باخوتك خدامه — بابن الشام ، وابن لبنان ، وابن حوران ، وابن فلسطين .

اليوم عيدي يا بني وعيدهم اجمعين .

في ١٧ ايار سنة ١٩٢٣

اراكِ يا بلادي بعينين [1]

أ

ايها السائح الاديب ، ان في البلاد السورية غير جمالها الطبيعي ومحاسنها الشعرية .

ايها الوطني الكئيب ، ان في البلاد غير البؤس والجمود والتقهقر والخمول .

ان في رأسي عينين ، عين السائح وعين الوطني .

ارى شمس الصباح تغسل رؤوس الجبال ، وتدفيء صدور الربى فيتماوج طرباً كل ما تلمس وكل ما تنير ، ثم تدخل بيت الانسان فتراه في ظلمات من الكلام وفي بحر من الدموع .

اسمع الحسون يغرد ساعة الفجر ، واسمع سحابة النهار انتحاب امة مات في قلبها البلبل والحسون .

المس في النسيم روح المجد الذي يصيغ في خرائب التاريخ اكليلا من النور والخيال لربة الذكرى والجمال .

وابحث في الخرائب الجديدة عن اثر مجيد فلا ارى غير جثة هامدة

---

(١) كتبت بمناسبة زيارة الكاتب الافرنسي بيار بينوا البلاد السورية وخطاب القاه فيها .

عند ركمة من الرماد .

احمل فكري الى الغاب هرباً من فكر وطن مجذوم فاعود وفيّ حنين الى الجذم .

اقف عند الغروب على قمة الابتهاج اودع الشمس فاسمع الالوف على شاطىء اليأس يودعون الوطن .

اجالس السكينة الزكية في ظل الصنوبر فاسمعها تقول : كنت اسمع امس وقع المعاول وغناء الفلاح ولا اسمع اليوم غير ابواق السيارات وثغثغة المتفرنجات .

واجالس المتفرنجة فتصارحني قائلة : أتفضل ان ترّاني مثل تلك الفلاحة في فسطان كالجرس شكلاً وقبقاب من خشب ؟

يمر النسيم في ظلال الاودية فيحرك الاوراق في الاشجار والادغال ، فارى خلالها خيال تلك الفلاحة الساذجة التي كانت تكشف ساقها للشمس ، وشعرها للهواء ، واصبحت اليوم تلبس اجربة الحرير والقبعة الخضراء ، وتلمس بيد غنجها السماء .

همست في اذن المتفرنجة : اين الفلاحة منك ؟ فوبختني بلحظة باريسية ووقفت تودع ، فمشى القلب معها الى الباب .

ان في قلبي عينين ، عين السائح وعين الوطني المغروس بين الصخور .

٣

ايها السائح الفيلسوف ، ان في البلاد غير ما يوحي اليك الشعر ويقرأ على مسمعك من كتب الانبياء .

ايها الوطني الذكي الفؤاد ، ان في البلاد غير الواح العلم والادب ترددها فخورًا ، قانعاً بما اكتشفه الافرنج راضياً بما اخترعه العرب .

ان في البلاد حياة بشرية لحمها ودمها من لحم ودم الشعراء والانبياء .

ان في البلاد انصابا واثارًا فيها من ابواب العلم والادب ما لا تجده في كتب العرب وكتب الافرنج .

وان في البلاد ايها السائح الحر تقاليد دُكت امس في بلادك معالمها . افلا ترى في زماننا ما رآه اجدادك في زمانهم ؟

اذا كنت من الاخوان الذين ينصرون الحقيقة في كل مكان ، فهلا وقفت في سياحتك لترفع في سبيل الحقيقة صوت ادبك ؟

اترضى ان يكون السيف الذي اورث وطنك شرفاً وعزًا ، هما رأس مالك اليوم ، في غمد الخطل تحت امر الطمع والظلم ؟ أتمر به ساكتاً بل مطمئناً ثم تقف على منابر البلاد لتثني على جمال الطبيعة فيها ؟

انك اخ لنا وان اختلف اللسان ، ونأسف ان يكون في رأسك عين واحدة لا عينان .

او انك تركت في بلادك سلاح الحق والحرية ، وجئت تنشد في بلادنا الروح الشعرية .

ايها السائح الافرنسي جئتنا غابناً وعدت مغبوناً .

اننا نعلم بما ستكتب وبما تبتغيه ، ونعلم ونود ان تعلم ان الشعر في القلب لا في صخور الجبال والغابات ، وان القلب الذي لا يشعر بما يقاسيه الانسان يحرم من موحيات الشعر وان ازدهت حوله بكل ما في الطبيعة من جمال وجلال .

وانت ايها الوطني الفصيح ، ان في الحياة فصاحة غير فصاحة اللسان ، وشعراً غير شعر الكلام .

ان في الحياة من القوى التي فيها مجد اذا استخدمها العلم والاخلاص ، وفيها ، اذا استخدمها الجهل والنفاق ، ذل وهوان .

ان في الحياة اذا عدت اليها ، مفكراً حراً عاملاً جريئاً ، ما يعيد اليك الثقة بالنفس ، والامل بالناس ، والايمان بالله .

خذها مني ولا تأخذها لا من الافرنج ولا من العرب .

كلمة خشنة صادقة هي لك ومنك خير من درر الالفاظ والمعاني التي كان لها يوم ، وكانت لها دواوين ومقامات .

حقيقة صغيرة تكتشفها انت خير من فلسفات ثمينة يهديكها من

قد يروم استعباد اعز ما فيك .

ان لي عينين ، عين السائح وعين الوطني .

٣

ايها السائح الاديب ، انك تبغي الجمال في الحقيقة ، وجئت لا تنشد غير جزء منها .

ان الحقيقة كلها لمثل ربك جمال يدوم .

ايها الوطني الاديب ، انك تبغي الحرية في بلادك وقد ذبحتها ذبح الشاة في فؤادك .

ان فيك ما في السائح ولكنه دفين الدموع ، وان في السائح ما فيك ولكن حب الذات يطيفه ويخفيه .

وان فيَّ ما فيكما وهو حي ، حر ، صالح ، منير .

حقيقة هي كالشمس ، وحرية هي كالجبال .

خذها عني ولا تأخذها لا عن العرب ولا عن الافرنج .

أريدك عاملاً اولاً ثم كاتباً مفيداً .

أريدك حراً اولاً ثم ثورياً مريداً .

اريدك عاشقاً اولاً ثم شاعراً مجيداً .

اي اخي الوطني ، ان معولاً تحيي به باعاً من الارض خير من يراع تدبج به المقالات الاصلاحية التي لا تصلح شيئاً ولا تفيد غير اعدائك .

اي اخي السائح ، ان صوتاً ترفعه على جور من اهل بلادك في البلاد ، تأباه انت وتقاومه في بلادك ، لخير من تآليف تقص فيها قصص شعب فقير في كل شيء سوى كرم الاخلاق .

اجل ، ان في البلاد حياة عرفت من الاحزان اشدها ومن الفرح اسماه واصفاه .

فيها صُلب صفوة العالمين ، وفيها رقصت عشتار ربة الفينيقيين .

وفيها يصلب كل يوم امل من الآمال ويرقص في كل يوم وهم من الاوهام .

فهل انت ايها السائح الاديب ممن حملوا اليراع على آمال الشعوب ام على اوهامها ؟

اننا نرى ما في بلادك من حقيقة وجمال في العلم وفي الفنون .

افلا ترى ما في بلادنا من شدة يقاسيها شعب صبور قنوع ، ومن عطف مع ذلك يزين امة وديعة كريمة ؟

خذ عنا فلا تضل ، نأخذ عنك فلا نموت .

الفريكة في تشرين الثاني سنة ١٩٢٣



نفحة من لؤلؤة (١)

يا ايتها الساكنة قعر ذاك النهر القصي ، يا ايتها الراقدة تحت تلك الامواج الغريبة ، لا تجزعي ، ولا تخافي .

انت اميرة اللؤلؤ ، واللؤلؤ هناك يلاقيك مرحبا .

انت ملكة المرجان ، والمرجان يمجدك منشدا .

يا ايتها الزنبقة المدفونة في مياه الغربة ، ليست الغربة بعدك بعيدة .

وليس القعر دائماً رمز السقوط والحزن والبلاء .

انت في غرقك ترتفعين ، وفي هبوطك ترتقين .

وقد كنت بعيدة عني ، فادناك مني الموت ، فاصبحت حية في ذكرى لا يموت

انت في مخيلتي تنيرينها ، انت فيها شمس الحب والذكرى ، الى ان تفنى المخيلة .

احببتك حباً روحياً ، وروحك لا تزال رفيقتي ، على مَ الدمع اذاً والحداد ؟

ابعدتك الهجرة الاولى ، فادنتك الهجرة الثانية ، وانت الان

---

(١) تذكاراً لصديقة غرقت في نهر الامازان باميركا الجنوبية .

في افئدة محبك وفيها من اللؤلؤ والمرجان ، ما يندر في
نهر الامازان

***

نعم فقدناك محدثة مطربة .
فقدناك ووجهك ينير المجالس والقلوب .
ولكنني لا ازال اسمع نغمات صوتك ، وصدى كلماتك ، وانت
تنشدين او تحدثين .
وهوذا وجهك اراه حيث اوجه نظري في كل مكان اراه — في
النور وفي الظلمة ، في ليـل الحزن وفي فجر المسرة ، على
الجدران ، وعلى الاشجار ، في الوادي ، وفي رؤوس الجبال
على وجه الفجر وعلى وجه الامواج الضاحكة .
اراك في الصفصاف واذكر حنوك .
اراك في اغصان البان واذكر صباك وجمالك .
اراك في السوسن واذكر شذى حديثك .
اراك في الغدير واذكر نغمات صوتك .
اراك في البنفسج واذكر حشمتك ولين جانبك .
اراك في خمائل الورد واذكر جميل غيرتك .
اراك في النور الذي ينبثق على العالم فيذكرني بكرمك .
اراك في الشفق الذي يودعنا كل يوم الى يوم واحد واذكر
وفاءك وصدق عهدك .

اراك على قمم الجبال واذكر شرف نفسك وعظيم إباءك .

***

نهضت باكرًا اتفقد زنبقة في بيتي . وجدتها ، ورأسها على صدرها ذابلة

ماتت الزنبقة عطشاً .

لله من سر في ذا الماء – نقطة منه تحيي ونهر يميت .

نظرت الى الزنبقة المائتة فارتعشت نفسي . ولطالما انتعشت من مرآها .

اين قلبها اليوم يخفق حباً واين شذاها ؟

ان نيسان ليبعث ما دفن في كانون ، فيطرب لذلك الانسان ، ويبتسم منجل الزمان .

***

اي منجل الزمان ، ان في الوجود حروجاً ازاهرها من روح الله .

وهي التي نورت قبل وستنور بعد ايامك وتبتسم دائمًا لابتسامك .

وانت من تلك الازاهر ايتها الروح اللطيفة الطاهرة .

كنت في حياتك الدنيا محجة الافئدة المحبة ، وكعبة القلوب الصافية ، ولا تزالين كذلك .

لا تزالين عندي اعجوبة البعد والزمان .

كلما رأيت لؤلؤة اسألها عنك .

وكلما رأيت مرجانة ارى فمك ، واسمع كلماتك الدرية .

في النكبة

الصليب [1]

او يوم في بيروت

دخلت المدينة التي كنت اعرفها فرأيتني فيها غريباً . سرت في المدينة التي احبها قلبي فهالني ما شاهدت . وقفت على منعطف جادة من جاداتها الكبرى ، علني ارى احداً من اصحابي واخواني . فمر امامي اناس بل اشباح من الناس لا اعرفهم ولا يعرفونني . لبثت حائرًا مستغرباً لا ادري أبين قومي انا او بين قوم من الاغيار بل من غير ذا العالم .

ولا شك اني في المدينة التي كنت اعرفها وكانت تعرفني . ولكن قومي — اين قومي ؟ اين اخواني ؟ اين احبابي ؟ أفي هذه الاطمار من ودعت امس سرياً ؟ أهذه الاشباح ما تبقى من تلك النفوس الابية ؟ أفي هذه الهياكل من كانوا بالامس من الكرام الاماجد ينشدون اسمى الاماني ، ويشيدون للعلم المعاهد ويرفعون للاداب الاعلام ؟ أفي هذه الاجسام المتداعية من عرفتهم رجالاً اشداء يتاجرون ويعلّمون ، يجاهدون ويسعدون ، يأكلون ويضحكون ويلعبون ؟

---

(١) نشرت في جريدة من جرايد المهجر سنة النكبة في سوريا

وقفت ساعة على منعطف الجادة والكآبة ملء فؤادي . القيت السلام على احد المارين فلم يرد عليّ ، ولم يقف ليرى من سلم . ظل سائرًا في سبيله مثل سواه ، منكس الرأس ، محني الظهر ، واجماً واجفاً ، ساكتاً قانطاً . لله من ذي الهياكل وذي الاشباح . رأيتهم يمشون كأن في ارجلهم قيودًا . رأيتهم يتسللون كانهم هم المجرمون لا حكامهم . رأيتهم يتحايدون بعضهم بعضاً كأن فيهم جرباً . قلما يقف احد منهم في الشارع ، وقلما يكلم احد احدًا ، كأن كل انسان منهم غريب في البلد . منكسو الرؤوس محنيو الظهور يسيرون . واذا رفع اليك احد وجهه ظننته اثرًا من الاثار ، او رمزًا من رموز الجوع والفناء . فترى العين منه جامدة غائرة تكاد تختفي تحت جفن عليل ذليل ، وترى الفم مفتوحاً مرتخياً كأن في اعصابه شللاً . وترى الوجنتين كأنهما طليا برماد جبل بالدموع .

انما هؤلاء ابناء المدينة التي كنت اعرفها وكانت تعرفني ، المدينة التي احبها قلبي ، المدينة التي بثثت فيها شيئاً من نفسي ، المدينة التي أحيت فيّ الايمان بالناس ، وجددت فيّ حب الوطن وحب الحياة . واين هي اليوم من الحياة ؟ واين فيها اليوم من كانوا بالامس من امراء الحياة ؟

رحت ابحث عن صديق لي منهم . وصلت الى بيته فوجدت الباب والشبابيك كلها مقفلة . سألت صاحب الدكان قرب البيت

فلم يجبني ، لم يكلمني . كررت السؤال فهز كتفيه متجاهلاً .
قلت : اذا كنت لا تعرفني أفلا تفهم لغتي ؟ اكلمك بالعربية .
وانا مثلك من هذه البلد بل انا اخوك ابن وطنك ، لا مأمور
حكومة ولا جاسوس . وما غايتي من السؤال سوى ...

فقاطعني الرجل قائلاً : رح عني يا شيخ ، رح عني .

ذهبت مطروداً ورحت ابحث عن صديق اخر لي بيته في
حي الاعيان . وقفت في الباب اقرع الجرس . فجاء الخادم في
زي الارناوط يسألني ما الخبر . كلمته بالعربية فاجابني ، وكانه
يسبني ، بلغة لا افهمها واقفل الباب .

قفلت راجعاً والغم يقودني الى بيت اخر في الحي . طرقت
الباب ففتحه جندي سألني بالعربية حاجتي .

قلت : جئت ازور جرجي افندي ... فاجاب مستعجباً :
ليس هنا . هذا بيت تيمور باشا . فقلت : وجرجي افندي ؟
فقال : لا اعرفه ، واقفل الباب .

اجتزت الطريق في الجنينة امام البيت وانا متيقن انه
بيت صديقي . فكم مرة جلست واياه في تلك الخيمة خيمة
الياسمين التي لم ازل اذكرها . وكم مرة تمشينا مساء في ضوء القمر
بين هاته الزهور وتحت هذه الاشجار ، اشجار الليمون والنخيل
نتباحث في شؤون الحياة وفلسفة الوجود .

طفت حول البيت لا ادري من شدة اليأس والغم مسيري .

تيمور باشا من هو تيمور باشا ؟ وبين انا اردد الاسم هاجساً مر ولد في قميص بالية مقدودة وهو يلوك طرفها . فاوقفته سائلاً اتعرف من هو صاحب هذا البيت ؟ فاجابني على الفور : وكيف لا اعرفه ، هو بيت سيدي ومعلمي جرجي افندي ...

— واين جرجي افندي اليوم ؟

— انت تمزح . كأنك لا تعلم .

قطعت من هذا الحي رجائي ورحت ابحث في حي اخر . طرقت باباً طالما فتحه الخادم متأهلاً مرحباً وطالما دخلته باسماً مسروراً . دققت اولاً وثانياً ولبثت انتظر . ثم دققت بعصاي وهممت بعد هنيهة بالرجوع لظني ان هذا البيت ايضاً من البيوت العديدة التي هجرها الاماجد الكرام . فسمعت اذ ذاك وطأ اقدام على الدرج ويداً تعالج الباب . فتحت فيه النافذة الوسطى فلاح منها شيخ ملتحٍ طاعن في السن .

قلت : هل مختار افندي في البيت ؟

وما كدت الفظ الاسم حتى أُقفل باب النافذة وسمعت الشيخ يقول : جاءوا يهزأون بي وباحزاني .. كلاب .. خنازير ..

استحال نور النهار في عيني ظلاماً واحسست اني مثل سائر الناس امشي والقيود في رجلي . همت في المدينة على وجهي لا ادري الى اين يحملني اليأس ، واين تحط بي الكآبة .

اين اصحابي ؟ اين اخواني ؟ اين اولئك الذين كانوا بالامس نور المدينة بل مصابيح الامــة ؟ وبين انا سائر في زقاق من الازقة رأيت امرأة جالسة على قارعة الطريق كانها من شــدة الهزال والعياء « مومية » مصرية ، والى كلي جنبيها صبي ذابل رأسه في حجرها ، وهي تمد من اجلهما يدًا رجفــة نحيلة ، كانها عظام يحركها شبح الموت .

ـ اعطوني الله يعطيكم ، الله يتحنن عليكم ، الله يفتح لكم ابواب الخير ، الله يقيكم من الجوع ، الله يصون حريمكم واولادكم . حسنة للصغار . كانوا اربعة صاروا اثنين . . .

فقال احد المارين : صدقت . وغدًا تدفن الثالث وبعد غد الرابع .

ورأيت الناس مع ذلك لا يبالون . يرون امامها كانهم عمي صم لا يرون صورة الشقاء في سواهم ولا يسمعون صوت البلاء في غير قلوبهم . لا تستوقفهم عاطفة الشفقة ولا تحركهم عاطفة الحنان . وهل يلامون وكل واحد منهم يحمل صليبه ويجر قيود بؤسه وغمه في مدينة الغم والبؤس ، والجوع والدموع ؟

ساعة واحدة فاحسست بثقل تلك القيود . فكيف بمن قيدوا بها ثلاث سنوات ؟ لا عجب اذا استحجرت قلوبهم .

وما مشهد الام واولادهــا بفظيع الى جانب مشهد اخر شاهدته . هوذا ولد مستلق على الرصيف . الصقه الجوع بالدقعاء

فظننته اذ رأيته ميتاً . وهوذا كلب قريب منه يصلك عظماً جريدا .
فلما رآه الولد طفق يدب على بطنه ويديه حتى وصل الى الكلب
فنزع العظم من فمه وهو لا يبالي بنباحه ، وسارع زحفاً وهو
يلتفت رعباً ، كانه خاف ان يراه احد من الناس .

خرجت من المدينة ونفسي كنفس تلك الام ، وقلبي
كقلب هذا الولد . وبين انا سائر الى الحرج رأيت في حقل على
بضعة امتار من الطريق ما ظننته لاول وهلة قطيعاً من المعزى ،
فاقتربت منه فاذا هناك ثلاث نساء وولدان في قمصان سوداء
بالية مجتمعون حول مزبلة يمدون اليها ايديهم فيبحثون فيها
كالدجاج عن شيء يخففون به مضض الجوع . عفواً ربي ! قد
كفرت بك وانكرت عنايتك الالهية ، وجدفت على اسمك
وسمائك . أتضن على مثل هؤلاء من ابنائك حتى بالموت ؟ أبشر
خلقوا على شكلك ومثالك يقتاتون من المزابل ؟ ويسابقون
الكلاب على عظم جريد ؟ لله من ذي المشاهد البشرية الفظيعة
المريعة ! لله من نكبة سوّدت يومنا ! لله من جوع مسخ قومنا

دخلت حرج الصنوبر واللعنة في قلبي وعلى لساني . نظرت
الى شمس المغيب من خلال الاغصان وفكرت بالبلاد التي
ستشرق بعد بضعة ساعات فيها . أتشرق يا ترى في قلوب من
هاجروا اليها فيسارعون بالنجدة ـ بالفرج ، بالخلاص ، قبل ان
تنقرض امتهم ؟ أيموت الاطفال في الاسواق ، أيسابق الصبيان

الكلاب على العظام ، ايقتات الناس من المزابل ، وابناؤك يا سوريا في مصر وباريس واميركا يتنازعون ويتطاحنون ويستشهدون على صفحات الجرائد ؟ أفي الذل والشدة انت تترقبين الفرج مع كل شارقة وكل غاربة ، وابناؤك الاحرار يستمهلونك بين هم يتناقشون فى الاحتلال والاستقلال ؟ ان كل سوري حى الجنان والوجدان ، ليود قبل كل شيء خلاص بلاده وانقاذ البقية الباقية فيها .

عدت الى المدينة تحت جنح الليل فى ازقة كانها المقابر . عفواً ، ان المقابر تنور الازهار وتغرد العصافير ، وفى هذه الازقة بيوت بل اكواخ تبكي فيها الاطفال وتنوح فيها النساء .

وصلت الى ساحة الاتحاد فوجدتها خالية مظلمة . تعثرت هناك بكلب فتحرك قليلاً ولم ينبح . الجوع والرعب يعقدان حتى السنة الكلاب . وما كدت اصل الى وسط الساحة حتى رأيتني امام مشنقة تدلت منها جثة فى قميص بيضاء ، فتراجعت مذعوراً فاذا انا بين عدد من المشانق ، بل بين اصحابي واخواني شهداء الحق والوطن والحرية ، وقد استحال ظلام الليل نوراً على وجوههم . عرفت معنى سكوت الناس فى البلد . هوذا مصدر الرعب السائد فى قلوبهم . هوذا مصدر البلاء المخيم على انفسهم . وعرفت معنى تغيظ الشيخ وكلامه : جاءوا يهزأون باحزاني . . كلاب . . خنازير . . اي مختار افندي . . اي جرجي

افندي .. اي اخواني كنت في المدينة نهاراً ابحث عنكم فما قد جمعني بكم الليل ، جمعتني بكم نجوم السماء . ولكن النور الذي ينير وجوهكم حيّر فؤادي . فتلفت استطلع مقامه فاذا في وسط المشانق صليب كبير يعلوها كلها ، وعند الصليب امرأة في ثوب الحداد جاثية ترفع الى المصلوب يديها .

امي ، أم امتي ! هي خالدة لا تموت . لا تموت وفي قلبها ذرة من الرجاء ، لا تموت وان امست ارضها غاباً من المشانق ، لا تموت وفيها من ابنائها من يموتون شهداء الحق والوطن والحرية

اقتربت منها والقيت عليها السلام . جثوت قربها وطفقت اقبل يديها ورجليها ، فنظرت اليّ تسألني : من انت ؟

قلت : انا احد ابنائك من المهجر .

فقالت : لا بارك الله بابنائي في المهجر .

– ولكنهم اليوم يفكرون في خلاصك ، يسعون في انقاذك

فاشارت الى الصليب قائلة : هوذا خلاصي وتعزيتي الكبرى

– ولكن ابناءك يموتون شهداء لتحيي حياة جديدة ، وغداً ترين جيش الحرية في ارضك .

– منذ ثلاث سنوات وانا اسمع كل يوم هذا الكلام ، واعلل النفس بالامال .

– ولكن ابناءك اليوم يتطوعون في جيش الحرية .

– لا اصدق حتى اراهم وارى بريق السيوف والرماح .

فقد سمعت انهم لم يزالوا منقسمين بعضهم على بعض • انظر الى هذه المشانق • تأمل هؤلاء الشهداء في ساحة الاتحاد – الاتحاد بالموت ، الاتحاد بالشهادة – فهل تعرف المسلم وهل تعرف المسيحي ؟ هل تميز بين اللبناني منهم والسوري ؟

– ولكن في ابنائك يا امي من يطلبون استقلالك •

فصاحت بي وقد استوت واقفة ترفع الى السماء يديها : استقلالي ! اواه ، اواه ! استقلالي بماذا يا بني ؟ أبالموت والجوع والذل والهوان ؟ استقلالي بالمشانق ؟ استقلالي بالقبور ؟ اتطلبون استقلالي يا بني وانا على اخر نسمة من الحياة ؟ خلصوني اولاً ثم اسعوا في استقلالي •

– ولكن بعض ابنائك يا امي لا يريدون خلاصك عن يد فرنسا . فنهم من يفضل انكلترا ، ومنهم من يؤثر العرب ، ومنهم من لا يدري ما يفعل ويقول ، ومنهم الجبناء الأمعيون الذين ماتت فيهم روح الحنان وعاطفة الشرف والوجدان . اما ابناؤك الاحرار فستشاهدينهم غداً شاكين السلاح ، يحاربون في ارضك من اجلك ، يفادون بانفسهم في سبيلك •

فنظرت الي نظرة يأس واسترحام وقالت : منذ ثلاث سنوات يابني وانا ارقب طلائع الخلاص • منذ ثلاث سنوات وانا جاثية عند الصليب اسأل الله ان يعطف على ابنائي ، ان يفك قيودهم ، ان يخفف في الاقل شدة النكبات

المتوالية عليهم . منذ ثلاث سنوات وانا مقيمة في ظل المشانق ، في ظل الرعب والهول ، في ظل الجوع والتجويع ، ارقب لابنائي في ارضي طلوع الفجر ، فجر الفرج ، فجر الخلاص ، فجر الحرية ...

وابنائي في مصر وباريس والمهجر يتنازعون ويتحزبون ويتخاذلون . وانا اليوم لا اطلب سوى الفرج وكسرة من الخبز. ليأت الفرج يا بني ولو عن يد القرود ، ليأت الخلاص ولو عن يد الشياطين ...

اخت البلجيك

حكي ان يوسف لما ملك خزائن الارض كان يجوع ويأكل من خبز الشعير ، فقيل له : اتجوع وبيدك خزائن الارض ؟ فقال : اخاف ان اشبع فانسى الجائع .

اخواني السوريين :

اذا كنا لا نخاف ان نشبع فننسى الجائع افلا نخاف ان يقال فينا اننا اناس لا نعرف التأسي والاحسان – اناس لا اثر في قلوبنا لتلك العاطفة الشريفة عاطفة البرّ التي تميز الانسان عن الحيوان ؟ سوريا اليوم اخت البلجيك ، اختها في الشدة والاسى ، اختها في الفاقة والجوع . ونحن في بلاد اميركا رابعون في بحبوحة من العيش تحت سماء الامن والسلام ، وما منا من ليس له في الوطن المنكوب ام او اب او اخ او اخت او نسيب . فهلا ذكرناهم اليوم اذا كنا لا نذكر سواهم ؟ اننسى سوريا امنا وهي اليوم تستغيث ؟ اننسى البائس فيها والجائع وفي كل ساعة في هذه البلاد يتجلى لنا البرّ والاحسان في اشرف الحلل وفي اجمل المظاهر البشرية ؟ افلا نشارك الاميركيين انفسهم – وقد كانوا السابقين – في جمع شيء من المال لاعانة المنكوبين والبائسين في سوريا؟ هي

فرصة نقرر فيها في الاقل شأننافي هذه البلاد . هي فرصة نثبت فيها اريحية طالما رددتها امثال العرب ، وكرماً هو عنوان الشرقي ، ووطنيـة لا تعرف اليوم التحزب والتفريق . وطننا في حاجة الى المال بل في حاجة الى ضرورات العيش ، فهل نرد فارغة يداً مدت الينا ؟

ينبغي ان نجمع في الاقل عشرة الاف ريال نبعث بها الى الوطن . ولو كل سوري في الولايات المتحدة يدفع ربع ريال فقط لجمعنا اضعاف هذه القيمة .

فيا اخي السوري — انت المقيم خارج نيويورك — زكِّ مالك الان . ريالاً واحداً تبذله في سبيل الوطن المنكوب اليوم خير من مئة ريال تبذلها غداً في سبيل اصلاحه واستقلاله . ارسل ما تجود به نفسك الى الجريـدة التي تقرأها ، او الى المحل التجاري الذي تتعامل معه ،او الى صندوق اللجنة لاعانة منكوبي سوريا في نيويورك . وان ما تجمعه اللجـان المختلفة يصل الى اللجنة الاميركية التي عرضت علينا مساعدتها فيُرسل اذ ذاك الى الوطن.

عار علينا وكلنا آمنون ثاب الجوع ان ننسى اليوم الجائع في بلادنا . عار علينا ان يدعونا الغريب الى اعانة وطننا المنكوب فلا نلبي الدعوة .

في كتاب جاءني من الوطن ان بين الايـدي الممدودة للاستنداء اكفاً لم تتعود ذلك ، فكيف بعامة الناس اذاً ؟ سوريا

اليوم اخت البلجيك ، اختها في الشدة والاسى ، في الفاقة والجوع ، فهل نسمع نداءها ساكتين ، وفي عروقنا ينبض دم اجداد كرام ، وفي صدورنا عاطفة بشرية حية ؟

ان الكريم وان كان فقيراً يقاسم الجائع كسرته ، فكيف بالغني ؟

لا نسألكم ان تقاسموا الوطن ثروتكم . انما نسألكم بذل اليسير مما لديكم .

نسألكم ان تقتدوا بيوسف الصديق فتذكرون في الاقل الجائع . لا نطلب منكم اليوم اكتتاباً باسم مشروع خيري او نهضة وطنية . انما نستحلفكم باسم الانسانية ان تبرهنوا على انكم من ابنائها . وبرهنوا للوطن ان العاطفة الوطنية لاتزال حية في صدوركم . وبرهنوا للاميركيين على انكم اسرع منهم في انقاذ اخوانكم من الجوع .

اجل ، ان خير البر عاجله ، وان سادات الناس في الدنيا الاسخياء .

نيويورك في ٢٥ ك ٢ سنة ١٩١٥



صوم واحسان

امة تصوم اشهراً ، امة تجوع وتُجوّع ، امة غشت الدموع بصرها فامست لا ترى غير يد القضاء وقد استل سيف النقمة امة جمد الدم في عروقها ، برد الدم في قلبها ، فامست لا تستطيع حتى النداء مستغيثة ، مستجدية امة تتلاشى سغباً ، تموت جوعاً ، فريسة ظلم تواطأ والقضاء ، ونحن من دمها ولحمها ، من صميم قلبها ، من خيرة ابنائها ، نائون عن هول اولئك البرابرة وعن هول ذلك القضاء آمنون شر الاثنين ، راتعون في بحبوحة من العيش حريزة ، في بلاد جزل خيرها ، وعم اليوم برها . بل نحن في بلاد تقرأ علينا روح الغيرية فيها امثولة جميلة كل يوم – امثولة في نكران الذات ، في الشفقة والاحسان ، في الرحمة والحنان .

فهلا اخذنا عن تلك الروح روح الغيرية في الاميركيين وهلا سمعنا لها واقتدينا بها ؟ هلا وقفنا على المنكوبين في بلادنا يوماً واحداً من ايام عملنا ؟ يوماً واحداً نقدسه للوطن المهدد بالاضمحلال ، يوماً واحداً نجرد فيه انفسنا من كل امالنا المادية ، من اغراضنا الدنيوية ، من غرائزنا الحيوانية ، من مهامنا التجارية والخصوصية كلها . يوماً واحداً من نكران النفس والضحية ، نتجه فيه نحو ذلك الوطن المنكوب وطننا ، ولا

نفكر فيه بغير اخواننا الذين يموتون اليوم جوعاً .

لست في ما اكتب الان مبشراً، ولا مقرّعاً منذراً . وليس في قصدي النظر الى الصوم من وجهته الدينية ، ولا من وجهته الصحية . كلمتي هذه تمليها عليّ نفس متألمة متوجعة . من القلب هي لا من الراس . فاذا دعوت السوريين الى الصوم يوماً واحداً كاملاً فذلك لانبه فيهم العطف والحنان ، فيشعرون بما يقاسيه اخواننا في الوطن .

البعد جفاء . وما لا تراه العيون لا ترثي له القلوب . في مدن سوريا وفي سهولها ، في قرى لبنان واوديته وهضابه الوف من اخواننا اليوم يقتاتون بالاعشاب ، بل يسقطون في الطرق من الضنى ، بل يموتون في البرية سغباً وجوعاً . ونحن البعيدون عن هذا المشهد المريع قلما ندرك معنى ما فيه من البؤس والويل ، قلما نشعر بحقيقة اهواله .

لذلك اقول : صوموا يوماً واحداً فقط تعرفوا معنى الجوع . يوم واحد تحرمون فيه لذيذ العيش يدنيكم من اولئك البائسين المقضي عليهم بصوم طويل مهلك ، المقضي عليهم بالموت جوعاً . يوم واحد من التقشف يقربنا من الوطن، يقربنا من البلية الهائلة المخيمة عليه، فيحيي فينا الحنان ، ويوقظ فينا عاطفة الاحسان .

وماذا يكلف هذا العمل ؟ شيئاً من العزم ، وقليلاً من الارادة . احسب نفسك ايها السوري مضطرب المزاج تشكو

تلبكاً في المعدة فيصف لك الطبيب الحمية او القليل من اللبن . افلا تمتنع اذ ذاك عن الاكل عاملاً بنصيحة الطبيب ؟ احسب نفسك في بلاد من بلدان العالم المنكوبة اليوم . افلا تضطر اذ ذاك ان تصوم ؟

حكي ان يوسف لما ملك خزائن الارض كان يجوع وياكل من خبز الشعير ، فقيل له : اتجوع وبيدك خزائن الارض ؟ فقال : اخاف ان أشبع فانسى الجائع .

وقد انسانا الشبع الجائعين . حسبك يوماً من التقشف تكفر فيه عن احجام منك في سبيل البر واهمال . حسبك يوماً من الصوم يقيك ان شاء الله ألم الجوع وذله . فلو كنت في سوريا اليوم وقيل لك ان اخوانك في المهجر لا يسمعون ولا يلبون نداءك فماذا كنت تقول ؟ لو كنت اسيراً في الوطن اليوم ايها الغني فماذا يفيدك مالك وانت لا تستطيع ان تبتاع به لوازم العيش ؟ بل لو كنت من اصحاب السيادة والجاه هنالك وجاءك امر الحكومة ان ادفع الف ليرة عن بلادك ، فانك تدفعها صاغراً ، وتراها تصرف في سبيل الظالمين العتاة من يجوعون اليوم اخواناً لك في الوطن .

اخوان لنا هنالك يعيشون اليوم في هولين – هول المشانق وهول المجاعة . الفقير يموت سغباً ، والغني يموت رعباً . ونحن في هذه البلاد آمنون شر الاثنين. يومنا زاهر وليلنا هني . لا رعب

يحرمنا النوم ولا جوع يحرمنا صفاء العيش . ومع ذلك ترانا نتردد اذا جاءنا مستنجد باسم الوطن فنتعلل ، وفي تعليلنا الرياء ، ونبذل النصح ، وفي نصحنا العار والبلاء . والحق يقال ان اماجد فينا لا يشعرون قطعاً بما يقاسيه اخواننا في الوطن . قد خمدت فيهم المخيلة ، اضمحلت قوة التصور ، فلا عين لهم سوى تلك الظاهرة في رؤوسهم ، ولا بصيرة سوى تلك التي تنبهها فيهم اقرب الاشياء اليهم . اني ارتأي اذن ان يصوم كل سوري يوماً واحداً كاملاً ليذكر اذ ذاك الجائع . اجل ، لنقتدِ ولو يوماً واحداً بيوسف الصديق .

وللصوم فوائد جمة غير التي تعدها الكنيسة ويحددها الدين. على اني اقول للمتدين التقي : صم واسأل الله الفرج واليسر لاخوان لك في الشدة . والى الاديب اقول : صم تتنبه فيك المخيلة ،وتنفتح فيك عين الروح . والى الغني اقول: صم ترَ الجائع ولو كان بعيداً عنك الوف الاميال فترثي لحاله . والى المتألم من المعدة اقول : صم تبرَ . والى النهم الاكول اقول : صم يوماً تتحقق النعمة التي انت فيها .والى النساء اقول : صمن وحرضن الرجال على الصوم .

لا اريد ان ازعزع ايمان من آمن بالصوم والصلاة . ولا ان ادغدغ ريب مرتاب . فلكل طريقته او بالحري قصده في الصوم ، ولكل فائدة . ان الصوم من وجهة دينية مفيد ، ومن وجهة

علمية مفيد ، ومن وجهة اقتصادية مفيد ، ومن وجهة صحية مفيد .

وليس الغرض من مقالي هذا ان اذكر الجائع فقط ، بل اريد ان يكون له من صومنا قليل من العون على جوعه . فان ليوم الصوم الذي ينبغي ان يكون عمومياً فائدة مادية كبرى . كل منا يصرف دولاراً في الاقل على طعام يومه . دولاراً نحرمه انفسنا ونعطيه الجائع ، فاية خسارة نخسر ؟ انما هو عمل جليل جميل مبتكر ، فيه دليل واضح على قوة روحية فينا تدعمها الارادة وتزينها رقيق الشعور والاحسان .

في الولايات المتحدة وكندا مئتا الف سوري . فلو صام كل منهم او اكثرهم يوماً واحداً وبعث بمصروف ذلك اليوم دولاراً او دولارين او نصف دولار الى لجنة اعانة المنكوبين لجمعنا بهذه الطريقة وحدها في الاقل مائة الف دولاراً .

اني وربي جاد مخلص في ما اقول ، ولست ابتغي الباطل المستحيل . ان مثل هذا العمل لا يستوجب سوى شيء من العزم وقليل من الارادة . وحبذا الجرائد معقبة على هذا الراي اذا استحسنته ، وحبذا الاكليروس مبشرين به . يوم صوم عمومي ، نادوا به وادعوا اليه الناس . يوم مقدس يُسجل لنا في تاريخ نكبتنا . ناهيك بان مثل هذا العمل يكبره الاميركيون فيذيعون خبره في جرائدهم . وفي هذا فائدة كبرى ، فائدة

اخرى لنا . يوم صوم تعينه اللجنة او الاكليروس فنتوفق فيه ان شاء الله الى جمع مائة الف دولار في الاقل . وما اجمله يوماً اذا تقدم اليوم الذي سيعينه رئيس الولايات المتحدة لاعانة المنكوبين في سوريا . فانه ينبه الاميركيين الينا فتكون التبرعات في الكنائس ضعف ما قد تكون .

من اغنيائنا من يصرف عشرة وعشرين دولاراً على عشائه ، ومنهم من يصرف مائة دولاراً في ليلة واحدة . زادهم الله خيراً وكرماً . ولكن عشاء واحداً يحرمه الغني نفسه ويخصص به الجائع لأجمل في عين الله والناس من مائة مأدبة فخيمة . وما فضل الانسان على الحيوان اذا كان لا يستطيع ان ينكر ذاته يوماً واحداً ليقي اخاه ويل الجوع ؟ ما فضل المرء اذا كان لا يستطيع التقشف يوماً واحداً في ايام يسره واقباله ؟

وان يمسسك بضر فلا كاشف له الا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير (الآية)

وقد يزيل الله نعمته عنك غداً ايها الغني فتكره على تقشف لا فضل لك فيه . وقد تذكر اذ ذاك الجائع ولا تستطيع اسعافه فتندم على ما فات ولا ينفع الندم . اذكر الجائع في اقبالك . خصصه بشيء من يسرك صافٍ لوجه الله . صم يوماً واحداً مع من يصوم اشهراً وكن من المحسنين المقربين .

كراغزمود نيويورك في ١ آب سنة ١٩١٦

الجوع

اذا نضبت في البلاد الانهار ، واستحالت السماء نحاساً حامياً ترسل اشعة شمسها نقمة وانتقاماً ، فتحرق الاشجار ، وتأكل النبات ، وتجفف الارض ، وتجعل الحقول كالصحراء ، يحدث في الناس مجاعة لا يد جانية فيها للانسان .

واذا غزا الجراد زرع امة ومروجها ، يلتهم الاخضر واليابس كشمس النفود في الصيف ، فلا يترك وراءه شيئاً يصلح للغذاء ، يحدث في البلاد مجاعة لا يد اثيمة فيها للانسان .

واذا القى الوباء في امة عصاه ، وشرع يفتك فيها فتكاً ذريعاً اوجب عليها النطاق الصحي فابعدها عن خيرات الارض دون تخومها ، قد تجهز عليها مجاعة لا يد جانية فيها للانسان .

واذا كانت امة في حرب فحاصرها العدو وحبس عنها الزاد فأبت التسليم صاغرة ، قد تهلك جوعاً ، ولا ذنب في ذلك على العدو او عليها . اما اذا وطأ الجيش المحاصر ارضها ، وأبت البقية الباقية الرضوخ والاستكانة ، ملحة في العصيان ، فقد يتخذ الفاتح التجويع طريقة للاستيلاء التام ، وقد يكون الذنب في ذلك عليها .

ولكن امة طائعة اولياء امرها ، امة مخلدة الى السكينة ، امة بريئة طاهرة الذيل ، ترباً على الضيم صبورة ، سكوتة ، جلودة ، ولا تزال تربتها في الاقل جيدة ، وانهارها جارية ، وسماؤها مقيمة على عهودها ، ترسل غيثها رحمة وخيراً — في مثل هذه الامة لا تحدث مجاعة الا لاحد امرين ، لجهل فيها او لجور في اولياء امرها .

والمجاعة التي لا يد فيها للطبيعة او للقضاء او لله انما هي جناية الانسان الكبرى على اخيه الانسان .

ان خيرات الارض لتكفي ابناء الارض . وان التكافل والتعاون لمن اوليات الوجود الانساني ، الوحشي منه والمدني . فاذا اغفلنا الان البحث في اسباب المجاعة ونظرنا في نتائجها فقط تحتم علينا النظر ايضاً في الطرائق الفعالة لازالتها — ولازالتها سريعاً .

امة صغيرة في بقعة قصية من الارض تتضور اليوم جوعاً ، وامة كبيرة ، عزيزة الشأن ، عظيمة الصولة ، يفيض عنها من خيراتها ، أليس من العدل اذاً ، بل من الواجب المقدس ، ان نأخذ مما فاض عن هذه لنطعم تلك الجائعة ؟ نعم ، وما يصح في الامم يصح في الافراد . هذا التعديل في خيرات الارض عدل لا فضل فيه لمن اعطى ولا شكر عليه ممن قبل العطاء .

الامة المنكوبة امتنا ايها الناس . الجياع فيها اخواننا .

وان الفائض عنا اليوم لا حق لنا فيه . لا والله ، ليس ما فاض من خيرنا اليوم لنا بل هو للجياع في بلادنا . ولو كنت من اولي السيادة والسلطان لاخذت اليوم من الشبعان لاطعم الجائع — لفرضت على كل سوري مقداراً من المال يدفعه راضياً او مكرهاً .

وماذا يضر السوري لو دفع اليوم دولاراً واحداً لاغاثة اخوانه في الوطن ؟ دولاراً واحداً على كل سوري الفقير والغني سواء .

اني من اصحاب الرأي لا اصحاب السيادة . لذلك لا استطيع ان اضرب ضريبة هي حق والله على كل سوري . ولكني عملت بطريقتي وبحقي فدعوت اخواني في المهجر في مقال سبق الى الصوم يوماً واحداً يدفعون ما يوفرون فيه اعانة للمنكوبين . وقلت اننا اذا خبرنا الجوع نرثي لحال الجائع فنسرع لاغاثته .

وكي لا يقال اني ابشر بما لا افعل بدأت بنفسي عاملاً برأيي . فاني محاسب لقلبي اذا مال وللساني اذا قال . لذلك صمت عن الاكل والشرب والتدخين يومين وصالاً ، ودفعت نفقة اليومين الى اللجنة ، وجئت في هذا المقال اطلع القارىء على ما خبرته من نتائج الصوم ومفعول الجوع . اذا كانت كلمتي في الصوم ذهبت ادراج الرياح فعسى ان يؤثر عملي فيحمل اخواني في المهجر على

الاقتداء بي .

من الساعة السابعة مساء حين بدأت اصوم حتى الساعة الثالثة بعد الظهر في اليوم الثاني لم اشعر قط بالجوع . ولكنني احسست بطنين في اذني ، وبتجفف في لساني ، وبشيء من المرة في فمي . على انني في الساعة السابعة ، اي بعد مرور اربع وعشرين ساعة ، بدأت اشعر بالجوع وبالعطش وبشيء من الدوار .

كنت اصيل ذاك النهار اتمشى وصديق لي في احد شوارع المدينة ، فمررنا بمطعم صُفت في شباكه انواع الخبز والكعك والحلويات ، فوقفت امام الزجاج الحائل دوني وتلك الجنة ناسياً ذاتي اتمثل في نفسي ولداً فقيراً جائعاً لا فلس في يده يفثأ به سورة جوعه . اخترقت الزجاج عيناي وما فيهما من نهمة الى الاكل ، فتحلب اللعاب في فمي ، فغصصت بمر مذاقه ، ثم غصصت هذا وانا لا اشعر حقاً ببعض الالم في معدة فارغة وقلب يقتر شواء ، لاني اجوع مختاراً ، والمسكين الذي صورته امامي ، بل امام تلك المآكل المصفوفة وراء الزجاج ، يجوع مكرهاً . ان جوعي ينتهي ساعة اريد ، واما جوعه فلا يزول الا ساعة يتصدق عليه احد المحسنين . الا ان حالة اجتماعية توجد مثل هذا المسكين الجائع لحالة ذميمة ، منكرة ، فاسدة ، جهنمية . واذا كانت كذلك فكيف بها والمسئولون عنها يجوّعون عمداً امة باسرها ؟

لقد شاركتك جوعك يا اخي فتعال اقاسمك كسرتي ، عله تعالى يبعدني من ذل الحاجة والاستجداء الذي هو اشد ويلاً من مضض الالم الذي يولده الجوع . ألا فليردد كل سوري هذا الكلام – هذا الابتهال . وليتمثل حول مائدته الفاخرة صبياً فقيراً عضه الجوع ، انهكه ، اقعده ، اضناه ، اورثه الهزال والخبل ، فيسارع الى اغاثته .

من غريب امر الصوم ان صاحبه لا يشعر بالجوع الا في الساعات التي اعتاد ان ياكل فيها . فاني بعد ان نمت الساعة العاشرة استفقت نصف الليل ولا اثر في نفسي للصوم كاني قضيت البارح وقد اكلت على عادتي ثلاث مرات .

ولكنني نهضت صباح اليوم الثاني وفي ساعة الفطور نهمة الى الاكل ، هذا ولا شك من قبيل العادة . على ان مظاهر الجوع ازدادت نوعاً وشدة . فتحت فمي فاذا به كالقطن جفافاً . بلعت ما تحلب من رضابي اذ مررت بركوة القهوة فاذا به امر من الحنظل . نظرت الى لساني فاذا به ابيض كالحليب . لمسته باصبعي فاذا به كعباءة الراهب خشونة . اما اذناي فازدادتا طنيناً ، واحسست ان رأسي جسم غريب رُكب موقتاً بين كتفيّ . نزلت الدرج وعدت الى غرفتي فانتابني نوبة من الارتعاش شديدة اقعدتني بضع دقائق وانا ارتجف حتى اطرافي . وكنت اثناء ذلك احس بموجات حارة تتماوج في داخلي وبالاخص في جوار المعدة .

فقلت في نفسي قد عضك الجوع يا رجل ، قد دنوت من اخوانك في الوطن . نعم بدأت في اليوم الثاني اشعر بالجوع واتألم من شعوري . كيف لا وهذا الضعف في رجلي وبالاخص في مفاصلي وركبتي انما هو احتجاج المعدة على صاحبها ، بل على باريها ، بل على من في ايديهم خزائن الارض ، المسؤلين عن توزيع خيرات الدنيا على عباد الله .

مررت بركوة القهوة ثانية فوقفت امامها راغباً متردداً . ثم امتنعت لاني آليت على نفسي ان اصوم يومين كاملين . وفي البيت المقيم فيه اناس في الدور الاسفل يطبخون طعامهم فتتصاعد احياناً روائح المطبوخات فتسطع في منزلي وتزعجني جداً . ولكن اليوم يوم الصوم والجوع . وان امرءاً يقتر شواء يتصاعد صوت نشيشه من فوق النار الى منزلي لأحب عندي من مطرب او مطربة . وان روائح الشواء والابازير في انفي لألذ من روائح المسك والبخور .

ولت ساعة الفطور وولى معها مضض الجوع ولا غرو ، فان للعادة حتى في الاكل كما قلت تأثيراً شديداً . اذ ما السبب يا ترى في رغبتي بالطعام ساعة اعتدنا الاكل وفي نسيانه بل الرغبة عنه في سواها ؟ اما الفكر مني ففي اليوم الاول من صومي كان لا يزال رائقاً صافياً ، ولكنه في اليوم الثاني اصبح خاسئاً حسيراً .

ومن غريب امر الصوم ايضاً ان الذي يصوم يومين يستطيع

ان يصوم خمسة بل عشرة وصالاً . في مساء اليوم الثاني لم اشعر بشهوة الى الاكل شديدة كمساء اليوم الاول . وقد قرأت اخبار اناس صاموا اسبوعين وثلاثة دون ان يتعطل فيهم عضو من اعضائهم الحيوية كالكبد او الكليتين او الرئة او القلب . ومعلوم ان الاقدمين كانوا يكثرون من الصوم والتنحس . فقد قال ابن خلدون : وقد شاهدنا من يصبر على الجوع اربعين يوماً وصالاً .

على انه لا ينكر ان الصوم اياماً وصالاً يفقد المرء قواه الجسدية والعقلية . فان العضلات والاعصاب لتتقلص وتذوب من الاقتيات مما كونت منه ، وان العقل ليخسأ ويمرض من تشرب دم لا غذاء فيه . وبكلمة اخرى ان الصائم طويلاً ، الطاوي اياماً ، يعيش على لحمه ودمه ، يأكل بالحقيقة نفسه . نعم اخواني ، ان الجائع يعيش على لحمه ودمه ، والجائع كرهاً يقاسي من مضض الذل – ذل الحاجة وذل الطلب – ما هو اشد من مضض الجوع .

كتبت مرة نبذة انتقد فيها بعض التعابير العربية التي نرددها نحن الكتاب وقلما نتحقق معناها . من جملتها قولنا : « الجوع المدقع » فاستغربت اذ عدت الى القاموس النعت وقلت ان لا احد يجوع جوعاً يلصقه بالدقعاء اي التراب ، اذ مهما اشتدت سورة الجوع لا تبلغ درجة يصح ان ننعتها بالدقوع .

ولكني تحققت اليوم خطأي . فان الجوع يوهن ، يهزل ، ينهك ، يقعد ، يهلك . وان كان الجائع هائماً في البرية يطلب الاعشاب يقتات بها فليس من الغريب ان يسقط في الطريق من شدة الجوع . نعم ، رأيت كلاب السوق في الشرق في جوع ألصق بطونهم ووجوههم بالتراب ، و كنت اجل البشر عن ذلة الكلاب وجوعهم .

فوا اسفاه ! انـا لنتحقق اليوم من حال بلادنا صحة التعبير العربي ، بل تحققنا التقصير فيه لا الغلو . ان الوفاً في الوف من اخواننا مطروحون اليوم في الطرق والاسواق تتلاشى اجسامهم عضواً عضواً ، عيونهم شاخصة الى الشمس نهاراً والى السماء والنجوم ليلاً ، يسألون باري الاكوان كسرة من الخبز . قلوب واجفة ، ابصار خاشعة ، نفوس حزينة حتى الموت ، معد تلتصق بالاضلع منهم كما تلتصق اجسامهم بالدقعاء – بالتراب . في فمهم المرة الصفراء – مر الحياة – يبتلعونها ثم يبتلعونها ، وفي اعصابهم المتقلصة غصص الرعشة ، وفي اجسامهم المرض والوهن .

شيوخ واطفال ، نساء ورجال ، يسارعون الى المدينـة من الجبال علهم يلتقطون في اسواقها ومن فضلات ذوي اليسار فيها كسرة من الخبز ، فيتساقطون في الطرق كورق الخريف ، وقد استحوذ عليهم الجوع المدقع . أفلا تثار كهم جوعهم يوماً واحداً ايها السوري ؟ أفلا تمدهم بنفقة يوم من ايام يسرك ؟

لو مر بهؤلاء المناكيد الجياع وحش ضار او عقـاب

كاسر لمال بوجهه عليهم ، لرثى لحالهم . واننا نعلم ان في الحيوان غريزة هي اشرف من غريزة الانسان التي افسدتها المدنية والتكالب فيها . من الطيور من يطعم صغارها من قلبها اذا لم تجد لهم رزقاً .

ايها السوري النائي عن اخوانك المنكوبين ، جئت اخبرك خاشعاً لا مفاخراً اني صمت يومين ، فانهكني ، اقعدني يوم واحد من الجوع . فكيف بمن يصومون أياماً بل أسابيع ؟ اليوم اليوم ! من كان غنياً فليستعفف من كان متردداً في التبرع فليتقدم . من كان متقاعداً فلينهض . من كان في سبات فليستفق . وما الفائدة من القول: غداً غداً . ان مثل هؤلاء المستحجرة قلوبهم الذين يلوّحون بثريدتهم للجائع لَاقرب الى الضاري من الحيوان منهم الى الانسان .

قد ينعم الله بالبلوى وان عظمت ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

الصوم ! التقشف يوماً واحداً ! تملكون تلك النفس منكم الشارهة الى اللذات . ان مثل هذه السيادة على انفسكم لاشرف من وجاهة يجرها لكم المال . صوموا يوماً واحداً وتصدقوا علينا بدولارين مما رزقتم . الامة امتنا جاثية على قارعة الطريق تئن من الم الجوع – الجوع المدقع – الجوع المهلك . فهلا تسارعنا بل تسابقنا الى اغاثتها ؟ « أليس بَلسان في جلعاد » ؟

الشحاذة

من انعم النظر في الصالح من اعمال الناس ، كبيرها وصغيرها ، ظاهرها وباطنها ، خصوصية كانت او عمومية ، تحقق ما للمآرب النفسية فيها من المكانة والاهمية . وبعد النظر في طائفة منها ، في الطبقات العالية كانت او في ما دونها من الهيئة الاجتماعية ، يرى انها تقسم الى قسمين ، تلك التي تنحصر تماماً في الانانية ، وتلك التي تتجاوز الانانية الى شيء من الغيرية .

وبكلمة اوضح : من اعمال الناس ما تنحصر فائدتها في اصحابها فقط ، ومنها ما يلحق الغير بعض فوائدها . وقد يندر اليوم العمل المجرد عن كل مأرب نفسي او غاية ذاتية — العمل الذي فيه نكران الذات ، وصافي المبرات . اما نكران الذات ففكرة قتلها التمدن الحديث . واما صافي المبرات فلا تجدها اليوم سوى في كتب الاقدمين وسير القديسين .

وقفت عند كتابة ما تقدم لاشعل القنديل ، فوقع نظري على كتاب كنت قد طالعت الليلة البارحة فصلاً منه ازال من نفسي مفعول ساعات في احد الملاهي . الكتاب للقديس افرنسيس الاسيسي وفيه من جميل اعماله ، وعجيب كراماته ، ولطيف سيرته ، ما قد يضحك رجل اليوم المفاخر بروح العصر ، المكبر نفسه ،

العامل اطلاقاً لها . ولكنه ينعش ويبهج من لا يزال في قلبه شعلة من الايمان .

فتحت الكتاب وقرأت فصل العشرين منه وفيه ان افرنسيس الابرّ ذهب يوماً الى الغاب خارج المدينة ليقابل الذئب الذي كان يغشوها فيقتل من اهلها ويخرب من اعلاقها فالتقى بـه وهو قادم ألبلد يطلب فريسته . فكلمه باسم الرب والسيد المسيح وخطب وداده ، وامره ان يُرعوي عن غيـه ، وهداه فوق (ذلك الى الدين المسيحي!) قرأت القصة ولبثت برهة بين مصدق ومكذب ، بين مؤمن ومرتاب . واظنني ضحكت منها في قلبي اذ القيت الكتاب جانباً لاعود الى ما باشرت من هذا المقال .

جمح القلم في يدي اذ جلست الى المنضدة افكر في اسلوب لكتابة ما خبرته في يوم سبق من امر الشحاذة . ولا اكتم القارئ انى شحذت يومين من اجل المنكوبين في بلادنا وقد علم اني صمت من اجلهم يومين ايضاً . ولكني لم اصم على طريقة الابرار والقديسين . وهذا ذنبي . عملت عملاً لا شك انه صالح ومفيد ولكني شوهته بمقالة اعلنته فيها ، فالفت انظار الناس من عملي الى نفسي . على اني اتعزى بكلمة للامام علي رضي الله عنه : سيئة تسوءك خير عند الله من حسنة تعجبك .

لماذا اذاً اعيد اليوم فعلة اخذني فيها شيء من الندامة ؟

ما الدافع الى الكتابة ؟ العجب – الشهرة – المجد الباطل ؟ لا انكر ولا ادفع ما تالني منها . الا اني لست وحدي المسؤول عنها اذ لو كان لي ان اتنكر لفعلت . ولو جاءني جني بالقبع الاخفى للبسته وخرجت اشحذ لوجه الله . وهل اكون راضياً تمام الرضاء بالتنكر وما فيه من نكران الذات يا ترى ؟ سؤال لا استطيع الجواب عليه لانني لم اخبر حقيقة امره وقد لا يأتي بالفائدة التي اتوخاها .

وهل في الكتابة في الشحاذة الان شريف قصد او كبير فائدة ؟ لست ادري . ألا تدري ؟ اذن لا تكتب . ان شر ما يسوّده ويبيضه الكتاب اليوم مقال لا يقين ولا اعتقاد فيه .

سمعت هذا الصوت خاشعاً وقلت : طوعاً وكرامة . اذن لا اكتب . واذ هممت بتمزيق ما سوّدت من الاوراق طرق الباب طارق ففتحت فاذا هناك شيخ طاعن في السن ، نحيل الجسم ، بهي الطلعة ، في ناظريه ضياء وهاج ، وعلى فمه ابتسامة جميلة ، وهو يستأذن بالدخول .

دخل وجلس على الديوان ، فجلست على كرسي قباله قائلاً : ايتفضل حضرة الزائر باسمه وقصده .

فقال والابتسامة تنير وجهه : رأيتك البارح في الشارع يا ريحاني ورافقتك متنكراً .

— امر عجيب !

– عجيب في نظرك لا في نظري . وقد سمعتك الان تناجي نفسك وتناقشها الحساب .

فادهشني بل هالني كلامه فاستحوذ عليَّ السكوت .

ثم قال : « جميل ما فعلت . ولكنك لست مقيماً على الجميل من فعلك وليس في طاقتك احتمال نتائج الخمول ونكران الذات . انت ابن عصرك مثل سائر الناس . وفي قلبك مرض هو مرض هذا الزمان . تقرأ في كتب القديسين فتضحك احياناً مما تظنه وهماً وخرافة . وتحاول الاقتداء بالابرار فتشوه بالاجهار اعمالك . على ان هذا مما لا يدعو الى اليأس في مثل حالك . اذا خلت الارض من اناس يأتون بعجيب الايات فيلينون اطباع الذئاب ويهدونهم سواء السبيل – وفي مدينتكم اليوم كثير منها في صورة البشر – فذلك لان الانسان قد فقد نعمة الايمان واعماله كلها كما قلت في بدء مقالك الذي هممت بتمزيقه منحصرة في نفسه ، مملوءة من انانيته . ولكن كبار النفوس والاخلاق يقومون باعمال قد يفيض من منافعها على الناس . فيغتفر اذ ذاك ما فيها من حب الذات والغرور بالنفس . قلت اني رافقتك امس ولكني لم اشاركك سرورك بفوزك ، فان الذين سألتهم ريالاً للجياع في بلادك فسبقتْ منهم الروحُ اليدَ والبشاشةُ العطاء خير منك . بارك الله فيهم واصلحك »

قال هذا ونهض مودعاً ، فقلت وفي نفسي اضطراب يمازجه

شيء من الغيظ : ولكنك يا سيدي لم تتفضل عليّ باسمك .

فنظر اليّ متبسماً متلمّساً ومد يده الى جيبه واخرجها فاذا هي نور يضيء كأنه مصباح من الكهرباء كبير أشعل في غرفة صغيرة مظلمة . ملأ النور منزلي فاخفى الضياء الباهر كل ما فيه من فرش وصور وكتب الا كتاباً واحداً . هو كتاب القديس افرنسيس الاسيسي . فدهشت ، ذهلت ، ارتعبت ، وفركت بعد هنيهة عيني محملقاً ، فاذا انا وحدي في الغرفة والباب مقفل ، والنور مضيء كالعادة ، والاوراق التي كنت قد هممت بتمزيقها لم تزل في يدي .

تبارك الله وتباركت اياته ! فاني وان صغرت دونها لمن الناظرين اليها في الفترات الروحانية بعين الاجلال . واني وان كنت ممن لا يستحقون ان يلمسوا اردان اصحاب المبرات والكرامات لمن الذين يجلون اعمالهم ويجبذون في مثل هذه الايام العصيبة الاقتداء بالقليل السهل منها .

احمل عصاك اذاً وامشِ الى الشحاذة ، باسم المنكوبين ومن اجل الجياع في وطنك . واذا كان لابد من الكتابة ايضاً فللتذكير فقط . علّ افراداً من اخوانك يتنبهون الى ما فيهم من الايمان الحي فيكبرونك براً ويفوقونك عطفاً واحساناً .

وما اجمل المباراة في المبرّات !

التعميم والتخصيص

التعميم والتخصيص ، كلمتان شغلتانا شهرين عن نكبة الوطن . كلمتان زرعتا في قلوبنا بذور الشقاق ، ابعدتانا كسوريين بعضنا عن بعض ، بعثتا في جاليتنا النيويوركية نزعات ونعرات كاد يتلاشى ذكرها . كلمتان القتا بيننا الاحن والفتن ، اضحكتا منا السوريين داخل البلاد ، وستحملان السوريين في مصر والاميركيين في هذه البلاد على ازدرائنا واحتقارنا .

التعميم والتخصيص ، كلمتان لا يعرفهما الموت ، ولا تكترث بهما المجاعة . ولعمري ان من واجبات السوري الاولى بل من واجباته المقدسة في هذه البلاد بالاخص ان ينسى او يتناسى اليوم كل ما يفسد جوهر الامور ، كل ما يحول دون المشروع لاغاثة المنكوبين .

منذ باشرنا العمل وانا وبعض الاخوان نحبذ الاتحاد وننشد الوفاق . قلت ولا ازال اقول ان مشروعنا هذا لا ينجح نجاحاً تاماً دون ان نوحد كلمتنا ، ونوحد غايتنا ، ونوحد عملنا . واشهد بالله اني واخواناً لي في اللجنة وخارج اللجنة مجردون عن كل غاية سوى الغاية الجوهرية الكبرى من المشروع . واني لارفع هذه الغاية على كل قانون ، وكل نظام ، وكل فلسفة ، وكل حزب ،

وكل عظيم فينا .

انا في هذه اللجنة خادم المنكوبين في سوريا ، لا المتحزبين والمشاغبين في نيويورك . وطني الجائع ، وطني البائس ، وطني المشرف على الموت ، لا ارى اليوم سواه ، ولا اسمع نداء سواه ولا اعرف سواه ، ولا اكبر مصيبةً سواه . وفي هذا انا من المخصصين لا المعممين .

ولا يظن السوريون اني متفرد بهذه العاطفة الوطنية . كلا . اني ارى فينا — في نيويورك وخارجها — كثيرين ممن يقولون قولي ، ويشعرون شعوري ، ويعملون عملي .

لا يزال والحمد لله في الجالية السورية النيويوركية بصيص من الضمير الحي . لا يزال في السوري على ما فيه من الاثانية الشديدة عاطفة سامية جميلة تعلو على امياله واهوائه . لا يزال والحمد لله فينا من يتطلع من كوى النزعات القروية والسياسية والشخصية الى اللب دون القشور . فهو اذا قال بلدتي ، وابناء بلدتي ، يعمل في الحقيقة لوطنه ، وللجياع في وطنه .

التخصيص والتعميم ، كلمتان في كلتيهما حق ، وفي كلتيهما تضليل . جميل بالمرء ان يخصص اولاً ابناء بلاده باحسانه . واجمل من ذلك ان يتناول احسانه غير ابناء بلاده .

ولكننا نحن السوريين من الامم الصغيرة المستضعفة . ومع ذلك ترانا نحسن دائماً الى سوانا . اذكر اننا في نكبة الطليان في

سيسيليا كان سوريو المهجر في مقدمة من مدوا يد الاحسان لاغاثة المنكوبين في تلك الجزيرة . وغيري يذكر غيرها من امثولات البر التي تبرهن على غيرتنا ، على انسانيتنا ، على عاطفة كرم هي من اخص حسنات السوري .

فما بالنا وشعورنا الانساني لم يزل حياً سالماً فينا ، ننادي بالتخصيص ؟ ما بالنا وكلنا سوريون ، سليقة الكرم فينا شرقية ، وعاطفة البر فينا غريزية ، نتقاعس ونتردد في اغاثة المنكوبين في وطننا العزيز ؟

ان التخصيص القروي في حالنا ، ونحن بعيدون عن الوطن ولا علم لنا بأماكن النكبة ومقدار شدتها في كل قرية ، لمن المبادىء الفاسدة نظراً وعملاً .

انا من قرية صغيرة في لبنان تدعى الفريكه . سكانها لا يتجاوزون المائة عداً كلهم من المزارعين . ولا ريب في انهم كلهم اليوم في حاجة الى الاسعاف . فلو قلت بالتخصيص القروي او البلدي ، لوجب عليّ وحدي في هذه البلاد اغاثة ابناء قريتي . وقد لا اتوفق الى ذلك . ومثلي لاشك كثيرون من القرى الصغيرة في سوريا ولبنان . فهل التخصيص من هذه الوجهة حق ، وهل يأتي بالفائدة المرغوبة ؟

وهناك سوريون كثر عددهم ، وجزل خيرهم ، قاموا يخصون بلدتهم باحسانهم . وقد لا تحتاج بلدتهم الى كل مايجمعونه

من المال . فهل يجوز يا ترى ان يمنعوا احسانهم عمن لا عضد ولا عون لهم ؟ وهل يستقيم في عملهم معنى الاحسان الحقيقي ؟ اذا كنا ننهض نهضة واحدة كسوريين لاغاثة الاجانب في نكباتهم افلا يجدر بنا اليوم ان نعمل كذلك لاغاثة اخواننا في الوطن ؟

التخصيص من هذه الوجهة مبدأ فاسد . في مثل هذا التخصيص تضليل وتقصير ، ناهيك عما فيه من الاثرة وحب الذات .

على اننا اذا قلنا بالتعميم في احساننا – اذا قلنا باغاثة المنكوبين في وطننا الاشد حاجة منهم فالاشد – ففي قولنا هذا شيء من التخصيص . بل فيه معنى التخصيص الحقيقي . فاللجنة السورية اللبنانية لاعانة المنكوبين انما هي لجنة تخصيص بالنسبة الى اللجنة الاميركية العمومية . وهذا التخصيص في التعميم انما هو المبدأ الوطني الذي لا يزال سائداً معززاً في العالم. وجدير بالامم المستضعفة في الاخص الا تسترسل الى نزعة هي اصلا بدوية ، نزعة القبائل التي يقال فيها « ان عيشها في رماحها» كل قبيلة ، بل كل عشيرة ، بل كل بيت لنفسه .

ان ضعفنا كامة صغيرة لمن دواعي الشدة التي نحن فيها . فكيف بنا اذا جزأنا ضعفنا مائة جزء ، لا صلة بعضها بين البعض ولا عاطفة وطنية او عاطفة احسان تربط بعضها بالبعض . انما هذا عود الى البداوة ايها الناس ونحن عن البداوة اليوم بعيدون.

فانا نشدكم بالله ان نعمل كامة جمعت كلمتها ووحدت غايتها ، ليكون لنا من ضعفنا شيء من القوة .

قلت ان لا يزال في الجالية السورية النيويوركية بصيص من الضمير الحي — من الاحسان الحقيقي — قد يستحيل غداً لهبة جميلة ، بل نوراً سماوياً . وبرهاني على ذلك آخذه من قانون بعض اللجان الخصوصية التي انشئت لغاية محدودة ولوقت محدود ، فهي كلها تعترف بوجوب بل بوجود لجنة عمومية . وتقرر في قانونها انها لا تناهض عقدها ، بل تعضد كل مشروع وكل لجنة عمومية لاعانة المنكوبين : فهذا بصيص من الضمير الحي حول رماد الغايات الذاتية ، والمآرب الخصوصية والمنافسات السياسية.

اخواني السوريين :

لست وايم الله ممن يحملون عليكم بالتشنيع والتقريع . اني لعالم بضعفنا وبمواطن الضعف في سوانا من الشعوب . فلا فائدة اليوم في التأنيب والتثريب .

قلت ان اللجان الخصوصية انشئت لغاية محدودة ولوقت محدود ، ولا ريب عندي انها كلها اليوم اجزاء حية عاملة مخلصة من اللجنة العمومية . وغداً ان شاء الله تجتمع الاجزاء وتتوحد وتندعم في اللجنة السورية اللبنانية لاعانة المنكوبين .

لجنة واحدة في نيويورك لا غير ، لجنة واحدة عمومية . وسيحق لنا ان شاء الله ان نفتخر بها ، وبنتيجة مسعاها . لجنة

واحدة نباري فيها لجنة اخواننا في مصر . لجنة واحـدة تبرهن للسوريين في الوطن وفي المهجر اننا كلنا اليوم نعمل يداً واحدة ، وقلباً واحداً ، وروحاً واحدة .

قد جمعتنا النـكبة ايها الاخوان فقمنا نسعى للمنـكوبين في الوطن اين كانوا - في بيروت او في لبنان ، في الشام او في طرابلس ، في حمص او في حلب ، وللمنـكوبين من كانوا — مسيحيين او مسلمين . قد جمع الجوع بين ابناء الوطن ، فليجتمع ابناء الوطن على الجوع .

كتاب الى صحافي

حضرة الصديق الفاضل محرر جريدة ...

ادهشتني منك كلمة في مقالك « اعانة المكوبين » بل احزنتني . قلت اعزك الله ولا اعز مقالك : الامر المهم الان هو ان يؤلف اللبنانيون المهاجرون لجان اعانة محلية ، اي ان ابناء كل قرية لبنانية في المهجر يؤلفون لجنة الخ .

فياصديقي الذي كان حرًا ، هل انت حقاً من دعاة الوطنية الجديدة ؟ هل انت من المبشرين بالروح القومية التي لا تعرف التقسيم والتحزب ؟ هل انت من انصار المبادىء الوطنية الشاملة العامة ؟ هل انت حر تسير امام قرائك الى الامام ؟ هل انت من قادة الرأي العام الذين سيذكرون في المستقبل اذا ذكر البناؤون والمصلحون ؟ اذا كنت كذلك فالرأي الذي ابديته لا ينطبق قطعاً على المبادىء التي نحن ننصرها ونسعى في تعزيزها . اذا كنت كذلك فاقتراحك تأسيس لجان محلية اقتراح مضر بخطة وطنية طالما فاخرتَ بها وجعلتها شعار جريدتك .

ان بليتنا الكبرى يا صديقي لهي في التفريق والتقسيم والتحزب . في التفريق الجنسي ، والتقسيم القروي ، والتحزب الديني . بليتنا اننا لا نفكر في امورنا الوطنية كوطنيين ،

كسوريين ، بل كشويريين و كسروانيين ومرجعيونيين ودمشقيين الى آخره من السخافات والضربات القروية . وما زلنا نفكر كذلك ونعمل كذلك ، وما زال فينا من قادة الرأي العام اناس يؤيدون هذه الفكرة السخيفة العقيمة الذميمة ، فلا امل والله بوطنية ننشدها ، ولا رجاء بتحقيق مبادئنا القومية الجديدة .

الفكرة القروية يا صديقي انما هي السبب الاول في تقهقرنا وانحطاطنا ، في شقاقنا وضعفنا وفسادنا . الفكرة القروية فكرة سخيفة عقيمة ، خسيسة ذميمة . ان الفكرة القروية لمن اكبر اعداء الوطنية . فهل انت وطني ام قروي ؟

اذا سمحت لي ان اجاوب عنك اقول بعد الجواب : لا تغمد سيفك اذاً الى ان تُصرع الفكرة القروية فنراها امامنا مائتة . ان سم هذه الفكرة لمن اخبث السموم . ومن اول نتائجه انه يسري الى البصر فيجعل صاحبه قصير النظر . خذ لك مثلاً . قصدت الحكومة اللبنانية مرة تبني طريق عربات بين قريتين وقررت ان يتقاسم اهل القريتين النفقات مناصفة . فاحتج احد الفريقين . انهم لا يدفعون الا ربع المصاريف لانهم لا يسافرون كثيراً مثل سكان القرية الاخرى !

امثل هذه العاطفة تدعى يا ترى عاطفة وطنية ؟ أوَ بمثل هذه العاطفة تُشيد اعلام العمران وترفع اركان المدنية ؟ اذا كنا لا نرى في التكافل والتضامن مصلحتنا الخصوصية التي تتألف

منها المصلحة الوطنية، فتربيتنا السياسية ناقصة فاسدة، ووطنيتنا من زخرف الكلام الذي قلما نحسن سواه .

ساعدنا يا صديقي لننفي عنا هذه التهمة . ساعدنا لنقتل الفكرة القروية ، التي هي عدوة الوطنية . ساعدنا لنعزز قولاً وعملاً المبادئ القومية الجديدة التي لا تعرف التقسيم والتحزب والتفرقة . ساعدنا لنزرع في العقل السوري بذور الحقيقة السياسية الكبرى ، وهي هذه : المصلحة الوطنية تتألف من المصالح الخصوصية ، والمصالح الخصوصية لا تقوم الا بالتضامن والتعاون . الفرد للكل والكل للفرد . فاذا عملنا بهذا المبدأ صرنا امة ذات شأن ، والا فعلى إمالنا الوطنية السلام .

في الحرب وبعدها

في الدرجة الثالثة [1]

من المشاهد التي لا انساها حياتي مشهد الجنود الافرنسية في ال « غاردي‌لست » وال « غاردى نور » [2] مشهد رهيب خطير طالما استوقفني معجباً ، اضرمني حماسة ، هزني طرباً ، ضاعف فيّ حب فرنسا والفرنسيين ، فوددت ان اكون منه لا من المتفرجين. غبطت رجاله على ما شاهدوا ، غبطتهم على ما نالوه من المجد ، غبطتهم على ما خبروه وقاسوه ، غبطتهم على حياة ابعدتهم عن سفاسف الحياة وانستهم ماديات الوجود .

كنت اجلس في القهوة ساعات اتأمل هـذا المشهد العظيم فيتغير امامي ولا يتغير . في اي وقت من النهار والليل كنت اشاهد في المحطة وفي ساحتها امواجاً منه زرقاء بيضاء تموج رائحة جائية ، داخلة خارجة ، من ساحات القتال الى المـدينة ومن المدينة الى ساحات القتال . فلا تكاد المحطـة تفرغ من الجنود المسافرين حتى تمتلئ من القادمين . تأملهم ايها القـارئ . منذ ساعة كانوا في الخنادق ، تحت عواصف المدافع وامطارها. دخانها

---

(١) ان مثلي في نشر هذه المقالة مثل من فقد من يحبه ولا يزال يحتفظ بصورة الحبيب.

(٢) محطتان من محطات سكة الحديد في باريس

لم يزل في عيونهم . اوحال الخنادق وغبارها واوساخها لم تزل متراكمة على اثوابهم . خوذاتهم وقد علقت في حقائبهم تفصح عن معارك خاضوها . غيّر لونها الدخان . شوهتها شظايا القنابل . منها مكسرة ، ومنها مثقبة ، ومنها ما أمست اثرًا من الآثار يحتفظ به الجندي كما يحتفظ باوحال الخنادق واوساخها .

وتأمل العائدين الى ساحات القتال بعد فرصة سبعة ايام . ان اثوابهم وحقائبهم لم تزل هي هي ، تطليها الاوحال ، ويحجب لونها الحقيقي الغبار . فان الازرق اصبح رمادياً والاحمر بنياً مائلاً الى الذهب العتيق . اتذكر لون البحر ابان العواصف ؟ ازرقاق يتماوج بين لون الغيوم ولون الافق المدلهم . هذا هو لون امواج المجد التي كنت اشاهدها في تلك المحطة في باريس .

تباركت ارض لا تزال تنبت مثل هؤلاء الرجال ، تباركت روح لا تزال منشأ الشجاعة والبسالة فيهم . قدست والله غبارهم وقدست الاوحال المتراكمة على جوانبهم . انهم ابناء فرنسا الحقيقيين . هم مصدر مجدها الباهر ، هم اركان عزها وصولتها واقتدارها ، هم العاملون في تخليد ذكرها ومدنيتها ، هم حماة روحها الجليلة التي انارت العالم وحررت الشعوب . هؤلاء هم الـ « بوالو » [1] ابطال الـ (مارن) و (السوم) و (فردون) [2]

(١) الذي نبتت لحيته . وهو اسم اطلق على الجنود الفرنسويين عامة .

(٢) اسماء اماكن اشهر المعارك في الحرب العظمى

بل ابطال الحرية وحقوق الانسان .

وانه ليدهشك منهم سيماء وجوههم . لا الغم ولا الابتهاج ، لا القلق ولا الضجر ، لا الحمود ولا الحماسة تبدو في ملامحها . هناك مسحة غريبة مبهمة بعيدة كالافق ، سرها عميق ، هادئة باردة ساكنة . هي كالحجاب وقد البستهم اياه الحرب . هي من نشأ الخنادق وقد اشربت ناراً وطليت دخاناً . ترى الجندي منهم فلا تصدق انه من الابطال . تنظر الى عينيه فتنكر وجود الحماسة في صدره . خطواته ثقيلة كحقائبه ، نظراته هادئة كنفسه ، قلما يبتسم وقلما يتكلم . كأن ما تشاهده منه انما هو ذاته الهيولية . اما ذاته المعنوية الروحية فكأنها لم تزل في الخنادق . او كأن شبح الحرب لم يزل ملازماً له مستولياً عليه .

ادهشني امر هؤلاء الجنود وحيرني . ولكني تيقنت حقاً صدق الآية « المرء باصغريه » بل باحد اصغريه في مثل هذه الحال — بقلبه فقط . تباركت هذه القلوب الكبيرة من ابنائك ايتها الامة المجيدة .

على انني حزنت لما شاهدتهم يوماً يركبون القطار في عربات الدرجة الثالثة منه . الدرجة الثالثة لمجد فرنسا ، الدرجة الثالثة لابطال العالم . انه لحيف والله . ولكنها الضرورة تقضي بمثل ذا الحيف . وددت مراراً ان اشاهد هذا الجندي البسيط في الدرجة الاولى ، يزينها ويشرفها بغباره واوحاله . وما الرياش

تفترشه السيادة او الوجاهة في هذه الايام العصيبة غير ترف ذميم . ولعمري ان ما يفترشه الجندي ليليق بالملوك . والدرجة الثالثة في القطار اصبحت الدرجة الممتازة .

لذلك سافرت يوم تركت باريس في الدرجة الثالثة علني اقترب من هؤلاء الابطال فاشاركهم ولو يوماً واحداً في مشقة السفر . وهناك امر اخر حبب اليّ الدرجة الثالثة . لما كنت اشاهد الجنود في الـ « غاردي لست » كنت اتشوق الى استطلاع اخبارهم ، الى معرفة حقيقة امرهم ، الى الدخول الى مكنونات صدورهم ، الى كشف اعماق سرهم . رأيت الضابط يمرح في اسواق باريس فراقني اناقة المظهر ، وبهاء الطلعة ، وجمال الثوب ، وسيماء العزم والحزم والنشاط . ولكني قلت ان ذلك من نتائج التدريب والتنظيم . اما داخلهم فقد يكون مضطرباً متزعزعاً . ورأيت الجنود المشاة الـ « بوالو » الذين تدور عليهم رحى الحرب ، ابناء الخنادق والنار ، رائحين جائين من ساحات القتال الى بيوتهم ومن بيوتهم الى ساحات القتال ، كأنهم من عمال المدينة ، لا تهزهم بهجة العطلة ولا يستفزهم الشوق الى مشاهدة الآل والخلان . ويدخلون المحطة عائدين الى جحيم الحرب كانهم عائدون الى اشغالهم العادية او الى بيوتهم . ومع ذلك فقد خامرني بعض الريب مما كنت اشاهد ، فقلت قد يكون ظاهرهم الهادىء الصامت نتيجة ما دوّخت الحرب من

داخل انفسهم .

حدثت بعضهم فكادت تكون لغتهم منحصرة بنعم ولا . كأن اصوات المدافع وامطار القنابل علمتهم السكوت وافقدتهم عادة الحديث . فقلت في نفسي علهم يخشون التبسط والافصاح بل تيقنت ان المرء في المدينة ايام الحرب ، جندياً كان او مدنياً ، يجمجم الكلام ويطليه ، فيخالط اراءه شيء مما توجبه الحكمة والاحكام من التحفظ . اجل ان لطفنا مثلاً لا يخلو في المدن من المصانعة واراءنا لا تسلم من الضغط . وطالما تاقت نفسي الى مجالسة الجندي في زاوية بعيدة من دوائر الاحكام ، من مراكز السياسة ، من ضوضاء الاسواق ، من همس المقاهي ، من ظل الجواسيس ! وهذه فرصة اغتنمتها – فرصة في الدرجة الثالثة نادرة .

فضلاً عما كان يهزني من الشوق الى الاقتراب من هؤلاء الاباسل الاشاوس . وددت الاقتراب من اوحالهم ، من غبارهم ، من روائحهم ، من اوساخهم ، بل من روحهم الحقيقية الخالدة الواقفة اليوم مجردة من اباطيل المجد وخزعبلاته ، الممتشقة سيف الحق والحرية . تلك الروح طي ذاك الثوب الازرق الكمد البالي انما هي التي البست فرنسا اليوم حلة من المجد لا يبليها الزمان .

ركبت القطار من الـ « غاردورساي » قاصداً اسبانيا . وقد

ادهش قصدي بعض الاصحاب . فتفننوا في التذكير والمداعبة . السفر في هذه الايام جنون . كانك لا تطالع الجرائد ، كأنك جاهل حقيقة الحال . لا فحم ، ولا عمال ، لا بخار ولا كهرباء . قد يقف القطار بك في بادية لا ظل فيها ولا ماء . وصحبتك اسبانيا . قد تصل سالماً يا صاح لو كان لك هجين تمتطيه . فلم اكترث بمثل ذا التثبيط والمداعبة . يممت المحطة باسم الله ووزير الشحن والنقل . وعددت وانا على الرصيف عربات القطار فاذا هي اربع عربات من الدرجتين الاولى والثانية وعشر عربات من الدرجة الثالثة . فاعجبني من الشركة هذا النظام والاحتياط ، وسررت ان اكون من الاكثرية في صف المسافرين . والاكثرية هذه الايام ممن وصفت من الجنود .

ستة منهم رفاقي في العربة . احدهم جزائري او افرنسي في الزي التونسي الذي ذكرني بجيش لبنان المنكوب التاعس . والبقيـة في الثوب البسيط الازرق ، الاغبر ، الاسحم ، او بالحري الملون بلون الحادق . وبين هؤلاء كهل تجاوز الاربعين سناً ، عمليق كبير الهامة ، شديد البنية ، كث اللحية وجهه كالجلد اذا بلّ في الماء ونشر ساعة في الشمس . وعيناه تحت حاجبين رهيبين جمرتان متقدتان . اما صوته فيا الله منه . لا يزال يرن صداه في اذني . ولكن الرجل وضاء المحيا تنسخ ابتسامته غضباً تمثّل في جفنيه ، وتزيل ما قـد يعتريك من الاشمئزاز

اذا سمعت صوتـه الخشن الجهوري . تمثلتـه يصيح، بالـ « بوش » فيرجفون خوفاً ورعباً . وما فتئت ان علمت انه كثير المزاح، فصيح العبارة انيقها . تتدفق الالفاظ من فمه كجدول من الماء بين الصخور، لها ضجة، وللضجة في صدره صدى غريب.

جلس هذا العمليق تجاهي وجلس الى جانبه شاب امرد، اشقر اللون، ازرق العين، دقيق البنية، لطيف الصوت فكه النفس واخذ يداعبه كأن له عليه دالة الصحبة فوق دالة السلاح.

– لم يتغير عليك شيء حتى الان . هذه العربات مثل الخنادق . تكتف واطو رجليك وقل الشكر للوزراء .

– ولكنها خنادق مترعزعة يا بني . فها انها بدأت تتحرك.

– كما يتحرك الـ « بوش » او الفيل .

– لا بأس يا بني . عطلة يقضيها مثلك في القطار خير من عطلة في المدينة .

– او في باريس اليوم وقد خلت من امثالك .

– ومن الفحم والحطب .

فقاطع حديثهما الجزائري قائلاً : وما احلى شمس افريقيا اليوم !

فاجابه ابو اللحية : اما انا فقد نسيت الشمس واكاد انكر وجهها اذا اطل .

ثم اشعل غليونه وبصق على الارض (نحن في الدرجة

الثالثة ايها القارى ، والخنادق تنسي الجندي ما تعوده من اداب التمدين)

اما الجزائري فاخرج لفائف من جيبه ووزع منها على رفاقه ثم اشعل لفافة ووقف امام الشباك يتنشق الهواء .

— ما قولك ؟ أتنتهي الحرب في الصيف المقبل ؟

- لو سألتني متى تنتهي حياتي لسهل عليّ الجواب .

— وماذا يهم متى تنتهي الحرب ما دام وزراؤنا بخير .

-- سمعت ان الوزارة متزعزعة وان وزير الحربية . . .

الكلام للجندي الامرد الذي قاطعه العمليق ابو اللحية هامساً كلمة في اذنه . فنظر الشاب اليّ — الى الغريب وسكت.

التجسس ! الحذر من التجسس ! عادة الفناها في هذه الحرب فكادت تمسي ملكة فينا كلنا .

وقد علمت بعد ان تعرفنا وتآخينا انه ظنني تركياً اتجسس للالمان وكان في نيته ان يتبعني حيث نزلت ليتحقق امري — ليتجسسني . ولكننا شربنا في (تولوز) كأساً على ذكر خطأه ضاحكين .

بعدنا عن دوائر الحرب السياسية، ورحاها العقلية، فانقشع الجو قليلاً ، فتنفست الصعداء . وكانت كل ساعة تمر تبعد الجنود اميالاً عن ساحات القتال فاحسست ونحن نمعن في السير جنوباً بارتياح منهم الحديث . وما لبث الامرد ان تحقق امري فقبل مني لفافة

تركية بل مصرية بل اميركية منتحلة اسماً عربياً . واجاب متلطفاً على سوءال سألته . اخبرني انه من فيلق الاغراب الشهير . ولما علم انني سوري لبناني هتف هتاف الدهشة والاستحسان ونهض من مكانه فجلس الى جانبي يحدثني بلهجة لا تحفظ فيها ولا تردد .

– بلادكم جميلة ، يا موسيو . انا لم ازرها . ولكني قرأت لامرتين وشاتوبريان . وكان لي رفيق في الفيلق سوري طالما حدثني عنها وشوقني اليها . السوريون شجعان ، واعرف منهم من نال صليب الحرب . زماني لا انساهم . قد حاربنا جنبا الى جنب في (شمباين) وفي (السوم) وفي (فردون) ونمنا في الخنادق جنباً الى جنب . ولي منهم صديق عزيز .

مد اذ ذاك يده الى جيبه فاخرج اوراقاً بحث فيها عن صورة ارانيها – صورته وجندي اخر معه .

– هذا هو صديقي اللبناني . اسمه سليم – سليم . . ولكننا قلما نذكر الاسماء الحقيقية في الخنادق . كنا ندعوه علي بابا مازحين . وكان خفيف الروح ، لطيف المعشر ، حلو المزاح ، ذكي الفوءاد ، ينظم الشعر ويتغنى به . وكم من ليلة في فترات القتال كنت ورفاقي نجلس في الخندق على القش فيقص علينا قصصاً شبيهة بالف ليلة وليلة ، ويغني لنا الاغاني العربية فيطربنا ويضحكنا كثيراً . وكان يخبرنا بما هو جار اليوم في

بلادكم فتتساقط الدموع من عينيه . مسكينة سوريا . مسكين لبنان . كنا نستمع حديثه آسفين غاضبين فنود لو كنا هناك لنكسر رأس التركي ، لنشفي غليلنا منه ، لنمحو من الارض ذكره واثره . . . مسكين علي بابا ! مسكين سليم ! يا ليلي يا ليلي لم ازل اذكر هذا النغم الذي كان يتغنى به في سكون الليل وظلماته .

ثم مال محدثي بوجهه الى رفاقه وطفق يسرد هذه القصة . وكنت قد سمعت كثيراً من مثلها في باريس وتحققت شجاعة السوري في ساحة القتال تحت نار المدافع . وقرأت في الجرائد كثيراً من وصف غرائب الاتفاق التي خلصت من الموت كثيرين من الجنود المستهترين . ولكن علي بابا — الحديث للجندي .

— في ليلة مقمرة مثلجة ، سكتت هنيهة فيها مدافع العدو شعرنا بشيء من الضجر والملل فعقدنا الحلقة وبادينا علي بابا ، فلم يجب . خرجت ابحث عنه فوجدته جالساً على كيس من الرمل خارج الخندق تحت الثلج ورأسه بين يديه . فاقتربت منه فاذا به يبكي . سألته الخبر فقال انه وصله كتاب من آله في لبنان ينبيء ان الوفاً من السكان هناك ماتوا جوعاً وان الوفاً من المنكوبين يهيمون في الحقول والاودية يلتقطون الاعشاب ليقتاتوا بها . فحاولنا ان نعزيه بما شاهده كل منا من اصناف الموت حولنا . والبعض اساء مداعبته فاستشاط سليم غيظاً وطفق يلعن الاتراك

وال « بوش » ويندب حظ بلاده . وفي تلك الآونـة استأنفت المدافع هولها فجاء ضابطنا يقول :

— اريـد منكم متطوعاً . فكان سليم اول من لبى الدعوة . كأنه يئس من الحياة فاستهتر . او كأنه اراد ان يطفي نار تغيظه في انتقامه من ال « بوش »

خرج سليم توًا ليقوم بواجبه ، خرج كالمجنون . فتتبعناه بنظرنا من خلال الاسيجة وهو يدب على الثلج خارج الخندق في ضوء القمر . دبَّ حتى حاجز الشريط فنهض اذ ذاك قليلاً وبين هو يجتازه . . . »

كمل الجندي عبارته باشارة افصح من الكلام . ثم قال :

— وما هذا بغريب . كثيرون مثله اكلوا الشريط . كثيرون مثله ألبسوا اكليلاً من الشوك . جاء الضابط ثانية يسألنا متطوعاً اخر . فتقدم منا اثنان كنت انا منهما . فراح الاول يحمل اوامر القيادة وخرجت انا مسرعاً لانقـذ صديقي علي بابا . دببت الى المكان الذي سقط فيه فلم اجده هنـاك . بحثت ثم بحثت عبثاً وعدت حائرًا الى الخندق . وكانت اذ ذاك مـدافع ال « بوش » تمطرنا وابلاً من النار ، فقطعت الرجاء من عود السوري وتأسفت كثيرًا عليه.ولـكن بعد ساعة او اقل سمعت صوتاً خارج الخندق يناديني باسمي . عرفت الصوت وخرجت مسرعاً ، فاذا بشبح على بعد بضعة امتار استوى واقفاً وخطـا بضع خطوات وسقط

ثانية على الثلج . سمعته يقهقه ورأيته يلوح بشيء في يده. فهرولت اليه فاذا به كما ظننت علي بابا وبيده رأس الماني هالني منظره في ضوء القمر ... « ابصق بوجهه . رأس تركي . رأس غليوم، قطعته بيدي . خذه ابصق بوجهه ... » وكان يئن من جروح في زنده وكتفه دامية وهو ينطق بمثل هذا الكلام ويهذي كالمجنون او المحموم . حملته على ظهري وهو قابض على الرأس بلحيته يلوح به، واسرعت عائداً الى الخندق، ولكن قبل ان اصل احسست برصاصة اصابتني بل اصابت حملي . اصابت علي بابا في ظهره فاخترقت قلبه . مسكين علي بابا . خلصني من الموت يا موسيو، لو لم يكن على ظهري لاصابتني تلك الرصاصة حيث اصابته . هذه تقادير الحرب . دفناه في الصباح متأسفين كثيراً عليه . وقلما تأخذنا عاطفة الاسف والحزن ونحن تحت هطل المدافع ولهيب النار . ولكننا تأسفنا كثيراً على علي بابا . واني لاحزن يا موسيو كلما فكرت به . وذاك المشهد الهائل وهو قابض على رأس الالماني بلحيته يلوح به في ضوء القمر، وتلك الضحكة المرعبة ضحكته، لا انساهما حياتي . ولا انسى صديقي السوري ... ساحتفظ بهذه الصورة يا موسيو . كان سليم خفيف الروح، لطيف المعشر، وكان شجاعاً، حبذا لو كان لي يا سيدي ان اضحي بحياتي من اجل سوريا كما ضحى علي بابا بحياته من اجل فرنسا .

الحق والقوة

قيل ان الحق يعلو ولا يعلى عليه . وقيل ايضاً ان الحق للقوة. وفي كلا القولين شيء من الخطأ وشيء من الصواب . في كلا القولين قياس لسلوك الناس والامم يرعى ويلغي عملاً بما يسود الحياة من المطامع المادية او الروحية . ففي القول الاول حقيقة سامية نصفها ظاهر جلي ، ونصفها غامض خفي - نصفها دائم ازلي ، ونصفها يتغير ويتلون تبعاً للزمان والمكان ، ووفقاً لمطامع اولي الامر والسيادة . مثل ذلك انا كلنا نقول باقامة الحق وتعزيزه . هذا هو النصف الاول الجلي من الحقيقة الدائمة . ولكننا لا نتفق كلنا دائماً على معنى الحق . وهذا هو النصف الثاني الخفي من تلك الحقيقة — النصف الذي لا يدرك الا ما ظهر منه ، ولا يظهر الا ما كان منه موافقاً لمصالح اشياعه .

اما القول الثاني : الحق للقوة ، فالنظر فيه يتوقف على النظر في تاريخ صاحب هذه القوة ، فرداً كان او امةً ، وفي الغرض الذي من اجله تستخدم تلك القوة . فاذا كانت مثلاً تستخدم دفاعاً عن ضعيف مظلوم ، او عن حق مهضوم ، كان الحق فيها ولها ظاهراً لا يختلف في صحته اثنان . واذا استخدمت في سلب اشياء الناس ، ونهب بلادهم ، واستعباد الشعوب الصغيرة ،

وهدم معاهد العلم والكنائس ، فتلك قوة وحشية بربرية لا يقوم في جانبها حق ، ولا ينشأ عنها غير الاثم والضلال .

على ان الحق الذي لا يعلو ولا يعلى عليه انما هو من الكمالات ، انما هو امنية من اماني النفس السامية . وقد يتحقق كله او جزء منه في زمن من الازمنة وفي شعب من الشعوب . يتحقق وا اسفاه الى حين . اذ من حقائق الوجود المؤلمة المحزنة ان الكمالات اذا وضعت موضع العمل لا تلبث ان يفسد شيء من كنهها فتمسي في حاجة الى الترميم والاصلاح . مثل ذلك في تاريخ الامم دعوة النبي محمد الى الاسلام ، ودعوة الثورة الافرنسية الاولى الى الحرية . فلولا القوة لما انتشرت الاولى في المشرق والمغرب ، ولما تكللت الثانية بالنصر في اوروبا جمعاء .

ولكن كمالات النفس والاجتماع كالجواهر الغوالي ، اذا تمتع بها الانسان ، وتحلت بها الامم ، يذهب شيء من رونقها وجمالها ، فتحتاج الى الصقل والاصلاح من حين الى حين .

الزمان والانسان افسدا العمل برسالة النبي وبرسالة الثورة الافرنسية ، فاستولى على الاسلام الجهل والخمول ، واستولت على الحرية السيادة المطلقة والمصالح المادية . ولكن في كلتا الرسالتين – رسالة النبي محمد ورسالة الثورة الافرنسية – جوهر الحقيقة الازلية الالهية . فلا يدوم استيلاء الجهل والاطماع عليهما

طويـلاً حتى يهب ابناء من قاموا بتلك النهضتين العظيمتين ليعيدوا الى الايمان الطهارة والعز ، والى الحرية الصولة المجد .

وهذا معنى الحرب اليوم في اوروبا ومعنى الثورة اليوم في بلاد العرب . تداعت اركان الحريـة في اوروبا لعوامل اجتماعية وسياسية ليس من شأننا الان البحث فيها ، فتغلبت عليها في احدى ممالك الغرب السيادة المطلقة بل السلطة العسكريـة وغرها الطمع ، فقامت تهدد الحرية في اوروبا جمعاء . ولكن فرنسا ، مهد هذه الحرية وحامية ذمارها ، وثبت ثانية وثبة الاسد ، فاستلت سيفها الباتر ، وحشدت جنودها الاباسل ، لتنقذ من براثن الالمـان اشرف مبادئ الاجتماع واعظم ركن من اركان الحكومات الدستورية الحرة . ففي هـذه القوة المجيدة التي اظهرتها فرنسا حق يعلو ولا يعلى عليه .

وتداعت اركان الاسلام في المشرق والمغرب من خمول استولى على شعوبه ، واطماع استحوذت على امرائـه واعلامه . فاغتنم الترك هذه الفرصة لاستخدام ما بقي من قوة فيه لمآربهم الذميمة واغراضهم الاثيمـة . فنهض العرب في البقاع المقدسة نهضة الاشاوس بل نهضة اجدادهم الكرام انصار النبي لينقذوا الاسلام من مطامع الاتراك وجورهم ، ويلبسوه ثانيـة حلة العز والمجد والسيادة . وفي هذه القوة التي اظهرها العرب حق يعلو ولا يعلى عليه .

فلو لم يكن للافرنسيس وللعرب قوة تناضل عن الحق الذي هو ارثهم الروحي وتعززه لظل هذا الحق امنية من اماني النفس بل نظرية من النظريات لا اثر لها في سلوك الناس يذكر ولا فائدة منها للامتين .

افلا يحق لنا اذاً ان نقول ان الحق للقوة اليوم عند الفرنسيس وعند العرب ؟ أوَ لا يحق لنا ان نقول ان الحق في الامتين يعلو ولا يعلى عليه ؟

اما عند اعدائهما ، عند الالمان والاتراك ، بل عند من يحاول ذبح الحرية واذلال الاسلام ، فالقوة قوتهم انما هي قوة ذميمة عقيمة ، لم تنشأ عن حق ما ، ولا تعزز حقاً صغيراً من حقوق الانسان .

اجل ، القوة التي لا يعرفها الحق ولا تعرفه انما هي قوة عقيمة همجية ، لا تقوم فيها حياة الاجتماع ، ولا تدوم معها حياة الحكومات دستورية كانت او ملكية مطلقة . والحق الذي لا تؤيده القوة ولا تعززه الحكمة انما هو حق خيالي شعري لا اثر له يذكر في سلوك الانسان والحكومات .

واني لا ارى بين الامم المتحاربة اليوم غير الامم الكبرى المتحالفة وعلى الخصوص هذه الامة الافرنسية العظيمة التي يحق لنا ان نقول في مقاصدها ومساعيها القولين اللذين صدرت بهما مقالي : الحق للقوة ، والحق يعلو ولا يعلى عليه .

اجل ، ان الحق للقوة التي تظهرها فرنسا اليوم دفاعاً عن كيانها ، دفاعاً عن حريتها وعن حرية الامم جمعاء . والحق الذي يعلو ولا يعلى عليه انما هو هذا الحق الكبير المجيد الذي تفادي فرنسا اليوم في سبيله النفس والنفيس فتكلله بالنصر وتعززه ، كما هو شأنها في كل نهضاتها وثوراتها الاجتماعية والسياسيه .

وهناك في المشرق ، في بلاد العرب ، في البقاع المقدسة ، امة صغيرة عدًا ، كبيرة فضلاً ومجدًا ، غنية بما اورثها الاجداد من علم وايمان ، فتستحق ان تُقرن اليوم بفرنسا لما قامت به من مجيد الاعمال حتى الان في سبيل الحق والحرية والاستقلال . وستحقق امالنا ان شاء الله ، نحن الناطقين بالضاد ، النائين عن الاوطان ، والعالمين بالغث والسمين من نزعات الاوروبيين .

باريس في ١٢ كانون الثاني سنة ١٩١٧

لا حياة الا بالحرية

ولا حرية الا بالسيف [1]

اخواني ابناء وطني

في هذه الحرب واهوالها حقيقة كلية علية لا يطفأ نورها ولا تزعزع اركانها . هي من اوليات اسباب الوجود ، ومن اكبر دعائم المجتمع الانساني ، ومن اعظم اركان الامم والحكومات ، حقيقة اولية ازلية لا تتبدل ولا تتغير . تزول الامم وهي لا تزول ، تضمحل الممالك وهي ابداً حية ثابتة نيرة منيرة ، تتقلب الاحكام وتتساقط العروش وهي قائمة كتمثال الحرية في ميناء هذه المدينة ، لا تزعزع الحروب اركانها ، ولا تطفيء مصباحها كوارث الزمان .

والحقيقة هذه هي ان الانسان لا يفلح ولا يسعد ولا يرتقي الا بممارسة حقوقه الطبيعية ، وان الامم لا تنشأ الا بنشوء افرادها ، وان الحكومات الحرة لا تقوم الا بشرائع عادلة تسنها المجالس النيابية ، لا باوامر تصدرها الملوك والسلاطين . واول حقوق الانسان الحرية — حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية

(١) خطاب القاه في حفلة لجنة تحرير سوريا ولبنان في نيويورك

العمل. واول اسباب الرقي في الامم الحرية الاجتماعية ، والحرية السياسية ، والحرية الدينية . واول دلائل الحياة الحرة الراقيـة ان يتمتع افراد الامـة على السواء بهذه الحقوق الطبيعية ، فيسعون دائماً في تعزيزها ، وينهضون للدفاع عنها عندما تقيد او تمتهن . ومن اكبر دعائم الحكومات الحرة المستقلة قانون يكفل لشعبها هذه الحقوق الاولية ، ويوجب عليهم الدفاع عنها يوم ينهض عليها الظالمون يحاولون قتلها .

حقيقة اولية ازلية الهية لا تموت في امة قبـل ان تموت تلك الامة وتضمحل اثارها . فهل تظنها تموت في فرنسا ؟ هـل تظنها تموت في انكلترا ؟ هل تظنها تموت في روسيا ؟ هـل تظنها تموت في اميركا — في هـذه الامة الفتاة المجيدة التي انارت مصباح الحرية منذ مائة سنة ، والتي سجلت على الظالمين كلمة ترددها اليوم امم الشرق والغرب ، بل تسطرهـا بالدم على لوح الوجود :

لا حياة الا بالحرية ، ولا حرية الا بالسيف .

انما هي هذه الحقيقة التي تبدو لنا اليوم من خلال ظلمات الحرب واهوالها . تسمعنا صداها المدافع ، ترينا سناها الحراب ، تحرك القنابل اسمها المجيد ، تتغنى بها الجنود في الخنادق وفي البحار ، تسطرها الطيارات على جبين السماء وراء الغيوم ، ترفع بنودها الامم وتقيم لها الانصاب والتماثيل .

لا حياة الا بالحرية ، ولا حرية الا بالسيف .

هذه الحقيقة انما هي التي تنير قلوب العمال اليوم في معامل البارود والسلاح وتثبت في العمل ايديهم . هذه الحقيقة انما هي التي تبذل من اجلها خيرات الارض ، وقوى الممالك ، وحياة الشعوب . هذه الحقيقة انما هي التي تحرك اليوم ادوات الحراثة وادوات الشحن والنقل ، كما تحرك يراع الكاتب ولسان الخطيب . هذه هي الحقيقة الخالدة في قلب الجندي تحبب اليه الموت في سبيلها . تحدثه بالنصر في ظلمات الليل ، تكلله بالمجد في ساحات القتال ، تنعشه فتجدد قواه ساعة يستريح ، تضرم في نفسه ناراً ساعة يهجم على العدو عدوها ، وتزهر نوراً في كل جرح من جروح ابطالها وشهدائها .

لا حياة الا بالحرية ، ولا حرية الا بالسيف .

هذي هي الحقيقة التي دفعت بالمرأة اليوم الى دوائر الاعمال الشاقة ، فتراها في اوربا وفي هذه البلاد تقوم مقام الرجال ، فتشتغل في معامل البارود والسلاح ، وفي دوائر سكك الحديد وتسيّر العربات ، وتخدم في المطاعم ، وتحرث الارض ، وتحارب ايضاً كما في روسيا اليوم كاخوانها الفدائيين . هذه الحقيقة يلبس شارتها الرفيع والوضيع في الامة من نساء ورجال ، ويجاهد في سبيلها السياسي والكاهن والفلاح . اجل ان الفلاح اليوم يحرث حقله لا حباً بالكسب بل دفاعاً عن الوطن . والسياسي

يخدم الامة اليوم لا حباً بالشهرة والمجد بل حباً بالوطن. والكاهن يصلي اليوم لا في سبيل النفوس بل في سبيل الوطن.

لا حياة الا بالحرية، ولا حرية الا بالسيف.

من اجل هذه الحقيقة الاولية حاربت الامم الكبيرة والصغيرة ثلاث سنوات، اهوالها منقطعة النظير وفظائعها تروع حتى البرابرة. حاربت ثلاث سنوات وستحارب ثلاث سنوات اخرى اذا اقتضى الامر. بل ستحارب الى ان تنتصر الحرية نصراً مبيناً فيحطم عرش القيصر بل عروش القياصرة، ويقضي على حلفائهم الاتراك السفاحين قضاء مبرماً. ملايين من شبان فرنسا وانكلترا وروسيا يموتون في هذا السبيل المجيد. الوف الوف الملايين من المال تبذل لهذه الغاية الشريفة. والامم الصغيرة، البلجيكيون والصربيون وابناء الجبل الاسود الاشاوس، يؤثرون الموت والاضمحلال على ان يعيشوا عبيداً للالمان او لسواهم من اصحاب السيادة المطلقة الجائرة الاثيمة.

الالمان يا اخواني هم اعداء هذه الحقيقة الاولية الازلية الالهية، هم اعداء الحق الاساسي من حقوق الانسانية كلها. اما الاتراك حلفاؤهم فهم اعداء الحرية منذ اكتسح هولاغو مدينة بغداد. خلق الاتراك اعداءها، وعاشوا اعداءها، وسيموتون اعداءها. من هولاغو الى عبد الحميد الى جمال باشا—يا لها من سلسلة جهنمية. من بغداد الى ارمينيا الى البوسفور الى سوريا اليوم، الى كتشانف

الى اطنه – الى بيروت ولبنان والشام – يا لها من سلسلة فظائع ومظالم ، اخر حلقة منها مثل اول حلقاتهـا ، صيغت من ارواح الناس ، وجبلت بدماء الناس . يا له من تاريخ يبدأ بالسلب والنهب والتدمير وينتهي بالشنق والصلب والتجويع – تاريخ كتب بدم الامة ، فلا تخلو صفحة من صفحاته من جريمة اقترفها ابناء هولاغو وجنكيزخان .

ولعمري ان عهد الحكم الدستوري اكثر عهود الاتراك فظائع ، واشده اهوالاً . فقد اقترفوا باسم الدستور جرائم يروع ذكرهـا حتى تيمورلنك ويهول امرها حتى عبـد الحميد . باسم الدستور حاولوا ان يمحقوا الامة الارمنية ، فاسروا شبابها وقتلوا شيوخها واطفالها ونساءها – وباعوا في المدن بناتها . باسم الدستور شنقوا احرار سوريا ، وقتلوا شبيبتها الراقية ، ونفوا وجهاءها والاشداء من رجالها . باسم الدستور نهبوا بلادنا ، سلبوا بيوتنا ، جوعوا اهلنا ، قتلوا ثلاثمائة الف نفس ، بين مسلمين ومسيحيين ، من امة بريئة مخلدة الى السكون . كلكم تعلمون ذلك فلا حاجة لان اصف الفظائع السورية . على انكم قد لا تعلمون انه باسم الدستور والملة ايضاً ينقلون الاكراد والاتراك اليوم الى بلادنا فيهبونهم املاكنا ويسكونهم في بيوتنا ، قصد ان يمحقونا تماماً وان يجعلوا سوريا كولاية من ولايات الاناضول . ومن منا يا ترى يرضى بذلك ؟ من منا يسمع بهذا الاضطهاد الفظيع الهائل ويسكت ؟

من مـا يتصور تلك المشانق – مشانق الذكاء ، مشانق الحرية ، مشانق الاحرار – وينام بعد ذلك هنيئاً ؟ من منا يفكر بتلك الفظائع ويمثل لنفسه ظلام تلك النكبات التي نكبت بها بلادنا وامتنا ولا تستفزه الحمية القومية والنعرة الوطنية ؟ وُلد الاتراك اعداء الحرية بل اعداء المدنية ، وسيموتون اعداءها . ولكننا نحن السوريين لم نخلق لنكون عبيدهم الى الابد . لا ورب السماوات . ولو عشت عبداً حياتي كلها فساموت في الاقل حرّاً . ساموت مجاهداً في سبيل حريتي وحرية قومي .

اخواني ابناء وطني ، ان الشعوب الصغيرة تنهض اليوم على ظالميها ، تمتشق الحسام لتقطع ربقة الجور والاستبداد ، لتحطم قيود الاستعباد . فهلا اقتدينا بالشعوب الصغيرة ، وبالاخص اذا كان لنا اليوم من ينصرنا ويساعدنا من الدول الكبرى ؟ او هلا اقتدينا بعرب الحجاز ؟ قد ظهر لي بعد رجوعي من باريس ان كثيرين من السوريين يرتابون في ان دولة كبيرة من دول الاحلاف تريد خلاصنا وتتأهب اليوم لان تنقذ بلادنا وامتنا من الحكم التركي الفظيع. فاليكم ما استطاعته وتحققته اثناء اقامتي في باريس . الى المشككين المترددين اوجه على الخصوص كلامي ، وقد حذر علينا الجهر بمثله قبل اليوم .

عندما وصلت الى باريس الشتاء الماضي اخبرني شكري غانم وهو اقرب السوريين الى الحكومة الافرنسية اليوم كما انه

حائز على ثقتها „ ان النظارة الحربية تؤلف للزحف على سوريا فيلقاً يدعى فيلق الشرق وتحب ان يتطوع السوريون فيه ليكون لهم يد في تحرير بلادهم . وسألني غانم عما اذا كانت الدعوة الى التطوع في اميركا تصادف استحساناً وقبولاً " . فاجبته وقتئذ ان السوريين على ما اظن لا يلبون الدعوة الا اذا كانت رسمية ، او بالحري اذا تأكدوا ان الحكومة الافرنسية نفسها تدعوهم الى التطوع . ولكن الحكومة في ذاك الحين لم تكن في حالة تمكنها من الجهر بهذه الدعوة ، فاهملت وقتياً . ثم مر شهران فدخلت اميركا في الحرب فتأسست على اثر ذلك اللجنة السورية في باريس لهذه الغاية . واللجنة السورية الباريسية انما هي اداة وصل بين فرنسا والسوريين . فقد تأسست برضى الحكومة بل باشارة منها وحضر جلساتها احد المتوظفين في الدائرة الخارجية ووزير من الوزراء . وهذه اللجنة مؤلفة من وجهاء السوريين هنالك من ادباء وتجار ، فتبرع اعضاؤها بمبلغ من المال وكان من اول اعمالها انها بعثت بوفد الى اميركا الجنوبية ليدعو السوريين هنالك الى التطوع .

ولما كنت منذ شهر في باريس قابلت متوظفيها وبعض اعضائها واطلعت على قانونها الاساسي فوجدت ان الغاية الاولى منه هو تحرير سوريا ولبنان بواسطة فرنسا من الحكم التركي . ودعوة السوريين الى التطوع في هذه السبيل تفصح عما يخالج قلب كل

سوري وتعبر عن اقصى امانينا . وغاية اللجنة الباريسية الاساسية انما هي غاية لجنتنا بالذات . اي انها تنحصر في تخليص البلاد من الاتراك . وهذا هو المهم بل الاهم اليوم . فعلينا اذن ان نخلص البقية الباقية من قومنا في تلك البلاد التاعسة او نفتح لهم في الاقل باباً للخلاص . واعلمكم ايضاً باني لم اكتف بمقابلة موظفي اللجنة واعضائها بل حباً بتحري الامور وتحقيق مقاصد الحكومة الافرنسية قابلت بعض المتوظفين في النظارة الخارجية ووزيراً فيها من الوزراء . وهذا الوزير هو ثقة في المسألة السورية وكلامه فيها يعول عليه . هو حافظ تقاليدها ، ودليل سياستها ، فترجع اليه الحكومة في الكبير والصغير من مشاكلها . ومما قاله لي هذا الوزير ان فرنسا تحب ان تساعد السوريين اذا هم ساعدوا انفسهم . وانها تريد أن تخلص بلادهم من الحكم التركي وتؤسس فيها حكومة عادلة راقية تكفل لاهلها الامن والسعادة وتمهد لهم سبل الرقي والنجاح . وستمنح الحكومة كل ولاية من ولايات سوريا ، ولبنان منها ، استقلالاً نوعياً . بمعنى ان سيكون لسائر الولايات مثل ما كان للبنان قبل الحرب مجالس ادارية ونظامات محلية توافق حالها وسكانها . وان الحاكم العام سيعين للوظائف العالية من هو اهل لها من السوريين انفسهم .

قلت للوزير اني اتكلم بلسان الفئة الراقية من السوريين اي بلسان الشبيبة السورية المتهذبة الحرة المعتدلة التي تطمح الى

للحرية والاستقلال تدريجاً . فقال : نحن متفقون . واول خطوة تنوي الحكومة الافرنسية ان تخطوها لتحقق امال الشبيبة السورية الراقية هي ان تؤسس في البلاد مدارس عمومية اجبارية مجانية علمانية (١) وهذه عين الحكمة . فان اساس الحكومات النيابية التهذيب ، وسياج الحرية التهذيب ، وحياة الامم الراقية التهذيب . ولم ازل اذكر كلمة الوزير الاخيرة . قال عند الوداع : ذكر اخوانك في اميركا بالمثل السائر : ان الله يساعد من يساعدون انفسهم . . وقل لهم ان فرنسا تحب ان تساعدهم ولكنها تحب ايضاً ان يكون لهم يد في تحرير بلادهم .

خرجت من النظارة الخارجية مقتنعاً ان لا خلاص لنا اليوم الا بواسطة فرنسا . واننا اذا اضعنا هذه الفرصة نجني على البقية الباقية في بلادنا المنكوبة . هي فرصة خلاصهم الوحيدة والذنب ذنبنا لا ذنب الاتراك اذا كنا لا نغتنمها اليوم . تركت باريس وجئت نيويورك مقتنعاً بصحة المشروع بل بلزومه . وكان في نيتي عند وصولي ان اسعى وبعض الاخوان هنا في تأسيس لجنة لهذه الغاية الوطنية الشريفة المقدسة . ولكني وجدت ان اللجنة قد تأسست بفضل بعض الادباء الاحرار والتجار ، وان غايتها نفس الغاية التي ننشدها ، فانضممت اليها

(١) هو وعد من وعود الحرب اللماعة التي خدعت كثيرين غيرنا

مسروراً . وقد جئنا في هذه الحفلة نعلن امرها وندعوكم الى مناصرتها .

اخواني ابناء وطني ، هـذه اول مرة في تاريخ سوريا اسس السوريون لجنة غايتها التحرير من نير الاتراك . وهـذه اول مرة في حياتنا السياسية اقدمنا على عمل لسانه السيف لا القـلم وعربونه الدم لا الكلام .

نعم قد نهض اللبنانيون في الماضي يدافعون عن حقوقهم بالسيف ويفادون بحياتهم في سبيل استقلالهم · لا ننكر ذلك بل نذكره دائماً مفاخرين . ولكن قد كان في ما مضى بين لبنان والولايات السورية جدار اقامه ارباب الفساد والتفريق ، فتمتع اللبناني بحقوق حرمها ابناء الولايات . واما اليوم فقـد قربنا المهجر بعضنا من بعض واصبح اللبناني وابن الولاية واحداً قلباً وقالباً . غايتنا واحدة ، روحنا واحدة ، مبدأنا واحـداً ، خطتنا واحدة ، ولجنة تحرير سوريا ولبنان ثمرة هذا التقرب وهـذا الائتلاف .

زرع الترك فينا بذور الشقاق [1] في المـاضي فنبت شوكاً وقلاماً . ولكن مظالمهم الاخيرة حصدت ما زرعوا وتركت الارض وراءهم بوراً . فعلينا نحن سوريي المهجر ان نزرع فيها

---

(١) وما كان في الحسبان ان سيحذوا غيرهم حذوهم .

بذور الوطنية . قد الفت الفظائع بين المسلم والمسيحي وبين اللبناني وابن الولاية . لم تعف المشانق احداً لدينه ، لم يستثن التجويع احداً لجنسه ، ولم يميز بيننا النهب والسلب والنفي والاضطهاد .

اخوانى ابناء وطني ، لقد جمعتنا اليوم النكبات فهل تفرقنا العصبيات والتعصبات ؟ في هذه اللجنة اللبناني والسوري والفلسطيني يعملون عملاً واحداً ويسعون سعياً واحداً . كلنا سوريون وسوريا واحدة لا تتجزأ . وهذا مبدأ من مبادئنا الوطنية السياسية .

اما اولئك الذين لم يزالوا ينادون بالعصبية الدينية او الطائفية ويحاولون زرع بذور الشقاق فينا ، اولئك الذين ينفثون في جامعتنا سم الجهل والتعصب والتفريق ، لمطامع نفسية دنيئة ، او لمآرب سياسية ذميمة ، فانما هم يقتفون اثر الاتراك المفسدين المضللين السفاحين . لغتهم عربية ولكن روحهم تركية . هم اعداء الامة والوطن . اجل ، ان من ينفخون اليوم في بوق النعرة الدينية او يتسلحون على اعدائهم بالنزعة الطائفية ، لمارقون خائنون . هم والحق يقال رجعيون . والرجعيون اما جاهلون متعصبون ، واما منافقون مجرمون .

السوري اليوم واحد ، والمشانق نفسها تنطق بذلك . فما اللبناني والشامي والبيروتي والحلبي والفلسطيني والمسلم والدرزي

والمسيحي واليهودي الا اسماء اولى نسمى بها . اما اسم العائلة عائلتنا فهو سوريا . وسوريا واحدة لا نقبل بتجزئتها . لا والله نحن لا نقبل بان يتحرر قسم من البلاد دون اخر . لا نقبل بتخليص ولاية دون اخرى من "الولايات" السورية . ولا الحكومة الافرنسية تريد ذلك .[1]

من جملة ما قاله لي الوزير الذي حدثتكم عنه كلمة اثرت بي واحزنتني . قال : عجيب امركم انتم السوريون . تتفقون في الجوهريات وتختلفون في توافه الامور . وجدير بكم ان تقتدوا بالارمن اليوم . الاسبوع الماضي كان جالساً في هذا الكرسي امامي نوبار باشا والى يمينه نائب بطريرك الارمن والى شماله فوضوي ارمني هم يوماً ان يقتل نوبار باشا . فجاؤا يقولون لي : كنا في الماضي مختلفين منقسمين بعضنا على بعض واما اليوم فلا احزاب ولا طوائف تفرق بيننا ، كلنا اليوم حزب واحد وامة واحدة . كلنا ارمن . فهلا اقتديتم انتم السوريون بهم ؟

كلمة حق اسكتتني واحزنتني . ولكن املي بالاتحاد كبير . وايماني بابناء وطني لا يتزعزع . في السنة الماضية جمعت كلمتنا ووحدت قلوبنا لجنة اعانة المنكوبين ، وستجمع اليوم كلمتنا وتوحد قلوبنا لجنة تحرير سوريا ولبنان . ولعمري ان غاية اللجنة

---

(١) نسينا في تلك الايام التاريخ وان الامم في سياساتها غيرها في ادابها

هذه لاشرف واعظم الغايات ، لان في اعانة المنكوبين خلاص قسم من الناس فقط وفي تحرير البلاد خلاص امة باسرها ، خلاصها في الحاضر ، وخلاصها في المستقبل . وهذه اللجنة بغايتها اولاً لا برجالها ، بمبدأها لا بمشيئها . وانا ممن ينشدون ويقدسون غايتها ، ويسعون في تعزيز مبدأها ، ويتشرفون ان يكونوا من اعضائها . نعم ان مثل المشروع الذي ستقوم به هذه اللجنة يشرف العاملين من اجله ، الساعين في تعزيزه ، المفادين بارواحهم في سبيله . واي شرف رعاكم الله اجمل من ذا الشرف واسمى ؟ — شرف الجهاد في سبيل الحرية ، شرف السعي في تحرير امتنا من نير العبودية ، شرف النصر على السفاحين المدمرين ابناء هولاغو وجنكيزخان ، بل شرف القتال جنباً الى جنب وجنود فرنسا البواسل — جنود الحرية منذ نشأت الحرية ، جنود النصر في ساحات الوغى ، جنود الحق في حرب الامم ، جنود المجد في سبل المدنية . والسوري والافرنسي اخوان ، يأتلفان ويتحابان . فقد حاربا في الماضي معاً وحاربا معاً في هذه الحرب ايضاً .

. . . .

وغداً يحارب الجنود الافرنسية في بلادنا ليحرروها . غداً يضحون بحياتهم من اجل الحرية حريتنا . فهلا شاركناهم في هذا الجهاد وهذه التضحية ؟ اخواني ابناء وطني ، نحن لا ندعوكم الى الحرب في سبيل امة غريبة اجنبية ، بل في سبيل امتنا وبلادنا

ندعوكم الى الدفاع عن بيوتنا ، عن حريمنا ، عن اهلنا المنكوبين اليوم . ندعوكم الى السلاح لاسترداد حقوقنا المسلوبة ، ولانقاذ بلادنا من براثن الغول التتري . الوطن يناديكم ، البقية الباقية فيه تستنجدكم ، تستغيثكم . ارواح الاحرار ، ارواح شهداء الامة ، تصرخ بكم . يا ابناء سوريا الثار ! الثار ! الانتقام الانتقام ! ارواح الالوف من قومنا الذين ماتوا جوعاً وتجويعاً تناديكم اليوم يابني لبنان وتدعوكم الى الجهاد الى السلاح . وصوت الاموات انما هو صوت السماء ، بل صوت الله

من منا يسمع هذا الصوت ولا يستجيبه ؟ من منا تجري في عروقه دم الرجال يسمع هذه الدعوة ولا يلبيها ؟ الا يحرك صوت الاموات في الاقل اروا حنا النائمة ؟ الا يستنهضنا اليوم نداء الجياع والمنكوبين الذين لم نعد نستطيع ان نعينهم بالمال ؟ تجمعنا اليوم على الاخص رابطة الدم ، تجمعنا اليوم نزعة الثأر والانتقام . عشنا مئات السنين عبيداً ، أفلا نعيش احراراً ولو يوماً واحداً قبل ان نموت ؟

اخواني ابناء وطني ، في اوربا وفي اميركا اليوم روح تسود كل نزعات الانسان ، وكل امياله ، وكل امانيه . وهذه الروح انما هي روح التضحية ، روح المفاداة بالنفس في سبيل الحرية ومن اجل الوطن . هذه وربي ضحية شريفة يضحيها الانسان . ولكن هناك ضحية اشرف واعظم . ألا وهي ضحية المرأة ،

ضحية الام التي تفادي بابنها في سبيل الوطن ، ضحية الزوجة التي تفادي بزوجها ، ضحية الفتاة التي تفادي باخيها وبخطيبها . فعلى النساء السوريات اذاً ان ينهضن اليوم فيناصرن هذه اللجنة ويساعدن في تحقيق امالها ونجاح دعوتها . يابنات سوريا ، اليكن اوجه كلامي . ويا شباب سوريا – يا شباب بيروت ، يا شباب الشام ، يا شباب لبنان ، يا شباب حمص وحلب ، يا شباب فلسطين ، اياكم انادي . من منكم في هذه القاعة يحب ان يتطوع في فيلق الحرية تحت هذا العلم ؟ من منكم يفادي بحياته من اجل الوطن ؟ يلزمنا فدائيون . تفضلوا . ليقف الفدائيون . ليقف من احب التطوع . الموقف موقف عمل ، لا موقف كلام ، موقف جنود لا موقف وعود . قفوا . تقدموا . تطوعوا الان ولنتمثل كلنا بقول الشاعر

لاتسقني كأس الحياة بذلة   بل فاسقني بالعز كأس الحنظل

سنة ١٩٥٠

كذلك انتهت حرب الامم يا بني ، الحرب التي ترى اثرًا من اهوالها في وجه ابيك وشيئاً من عبرها في نفسه ، الحرب التي اورثتني عيناً من زجاج وعيناً لوجداني من النور . وانا واحد من اربعة ملايين نجوا من نيرانها مشوهين ظاهرًا ، مطهرين قلباً ووجداناً . بل انا واحد من عشرات الملايين في كل امة قضوا ثلاثين سنة آسفين على ضحايا تلك الحرب البشرية ، قانطين من مساعي الانسان ، يائسين من مناهج الامم ، صابرين على عقم الايام .

انتهت تلك الحرب الضروس يا بني ، وما كان من نتائجها الظافرة ، المخالفة لما تقدمها من الحروب ، سوى سقوط الدول الاوتوقراطية الثلاث اي المانيا والنمسا وروسيا ، وظهور الدول الصغيرة الجديدة في قلب اوربا . وهي على حداثة سنها غاضبة على ماضيها ، غير راضية بحاضرها ، ناظرة بعين اليأس والرجاء الى مستقبلها .

انتهت تلك الحرب عند عقد معاهدة فرساي التي لم يكد يطوي الزمان عاماً عليها حتى نسي العالم تلك الآيات الرنانة التي كان يرددها الوزراء والروساء والصحافيون والزعماء . نسينا او

تناسينا « جمعية الامم » و « حرية الشعوب الصغيرة » و « الحكم الذاتي الاختياري » و « استئصال السياسة السرية » و « تخفيض السلاح » وغيرها من المبادىء التي سفك العالم المتمدن دم شبيبته من اجلها . نسيناها يا بني او تناسيناها . وعدنا ظاهراً الى ما كنا فيه قبل الحرب

اما تأثير الحرب الادبي والروحي فظل حياً في قلوب الناس وشرع ينمو في الهيئة الاجتماعية التي قلما تؤثر السياسة بها ، والتي لا يظهر تأثيرها بالسياسة والاحكام الا تدريجاً ، وببطء وغموض تملها النفس ، ويكاد ينكر العقل حقيقةً فيها دائمة . نعم يابني ، قد زرعت تلك الحرب بذور السلم في العالم ، ولكنها لم تنم بادىء ذي بدء الا في الطبقات الواطئــة من المجتمع البشري ، في طبقات العمال والفقراء ، الطبقات التي التهمت نار الحرب رجالها ، الطبقات التي لا يكون حرب في العالم دونها ، بل لا تقوم حرب الا بها وبضحاياها . وبما ان الذين تولوا الاحكام بعد تلك الحرب كانوا من الطبقة الوسطى التي تدعى في اوروبا « بورجوازي » لم يكن الشعب راضياً بها ، ولما نهض العمال والفلاحون في روسيا يؤسسون حكومة منهم ولهم ، حالت دون مساعيهم دول الاحلاف ، فسقط ما كان يدعى الحكم البلشيفي ، كما سقط قبله الحكم البورجوازي والحكم الاوتوقراطي .

واذا عدنا الى التاريخ ودققنا النظر في مجرى الاحكام التي

اسسها الناس نرى انها تشير الى دائرة فيها لم تزل ناقصة . فمن الحكم الابوي ، أي حكم الحكماء في قديم الزمان ، تدرجنا الى الحكم الاستبدادي ، أي حكم الملوك والامراء ، ومنه الى الحكم الدستوري اي حكم الوجهاء والاكابر ، ثم الحكم الاشتراكي ، اي حكم العمال الذي نحن فيه اليوم . والذي سيتبعه ولا شك هو الحكم الابوي ، الدستوري ، الاشتراكي ، الذي تتم عنده دائرة الاحكام كلها . ويظهر انها تتبع بعضها بعضاً على هذه الصورة طبقاً للتاريخ وعملاً بناموس النشوء والارتقاء . فاذا تأسس حكم العمال على عرش الحكم الاستبدادي مثلاً لا يلبث ان يسقط فيقوم مقامه الحكم الدستوري البورجوازي . كذلك كان في روسيا عند ما سقطت البلشيفية .

ان لحرب الامم من هذا القبيل نتيجة شبيهة بنتيجة الثورة الافرنسية ، اذ انها اسقطت الملوك الاوتوقرطيين عن عروشهم ، وولت مكانهم بعد انقلابات عديدة من ادعوا زعامة الشعب من وجهاء الطبقة الوسطى ، طبقة البورجوازي . فلم يكن الانقلاب النهائي الاخير سوى انقلاب سياسي قضي فيه ولا شك على اصحاب التيجان وارباب الشرف الموروث ، وتعززت فيه سيادة اولئك السياسيين والزعماء الذين كانوا يرددون الفاظ الحرية والمساواة ، ويتشدقون بتلك الآيات الذهبية الرنانة ، ثم يخدمون باعمالهم وشرائعهم امراء المال وارباب المعامل والتجارة .

اجل يا بني ، انتهت حرب الامم ولم تنته حرب الاحزاب ، احزاب ذوي الثورة والسيادة واحزاب العمال . لم تنته حرب الطبقات بعضها على بعض المتأصلة اسبابها في المجتمع الانساني بل في اعماق الطبع البشري .

حكم الاوتوقراطيون زمناً طويلاً فسقطوا فاندثرت اثارهم ، ثم حكم الوجهاء والاكابر ، زعماء الطبقة الوسطى ، فكان حكمهم شبيهاً من وجوه عديدة بحكم الطغاة ارباب الصولجان والجنود . اي ان مصالح الافراد ، وتقاليد الدول ، ومآرب ذوي الثروة والسيادة ، ومطامع السياسيين ، بل آفات الهيئة الحاكمة والهيئة المحكومة كلها ، كانت تظهر دائماً بمظهر الشرائع والاحكام تارة على العمال وطوراً على ارباب الفكر وانصار الكمال . ويا لها من شرائع سُنت لتعزيز الحكومات ، لتعزيز الجندية ، لتعزيز الاحزاب السياسية ، لتعزيز المشاريع المالية والاقتصادية . يا لها من شرائع سنت باسم الدمقراطية فما انتفع بها غير اعدائها .

ثلاثون سنة ولت يا بني ، والشعوب وقد شبعوا حرباً راضون بما كان ، ساكتون عن مظالم قديمة وجديدة ، صابرون على فساد الاحكام وعقم الايام . نعم رضينا بشرائع سنها موتمر السلم ، وبعهود عقدت بين الامم . قبل العالم معاهدة فرساي كما يقبل المريض الدواء .

ولكني لم ازل اذكر يوم عاد الرئيس ولسن من اوروبا مكللاً باكليل الاكرام والاجلال ، مزوداً زقوم الخيبة والفشل . ويا له من يوم تمثلت فيه آمال الامة الاميركية لابسة الحداد ، وامال الدمقراطية مذبوحة على هيكل المطامع الدولية ، وامال الملايين من ابطال الحرب مدفونة معهم على ضفاف ال (مارن) و(السوم) وفي سهول (فلاندرس) و (شمباين) .

حتى ان اعداء الرئيس ندموا على ما بدا منهم من الاسترسال الى التعصب السياسي والتحزب . وكانوا حانقين على ساسة اوروبا الذين اكرموا الرئيس اكراماً جميلاً منقطع النظير . وقد استطاعوا بدهائهم وغموض سياستهم وبمساعدة فريق من الاميركيين انفسهم ان يحولوا دون ما كان يبشر به من الكمالات السياسية ويسعى الى تحقيقها .

مهما قيل بالرئيس ولسن يا بني ، فاننا اليوم متفقون مقتنعون انه من اعظم رؤساء هذه البلاد ، بل من اعظم كبار الزعماء في العالم . واننا لنرى اليوم ان الامم المتمدنة لم تكن عند انتهاء الحرب مستعدة لقبول كمالاته السياسية . ومع ان اغلاطه كبيرة كثيرة ، فقد كان بعيد النظر وصادق اللهجة في سياسته الدمقراطية العمرانية . وان الامة التي ترفعه الان الى مقام (لنكلن) و (واشنطون) لهي عالمة بمواطن ضعفه ، مدركة كل اغلاطه . واكبر هذه الاغلاط واضرها بخطته الدمقراطية

الصميمة هو انه اغضب الحزب الجمهوري قبـل سفره الى اوروبا . فان تقيده في ذلك الزمان بحزبه الخاص الى درجة التعصب الاعمى حمله على ان يؤثر سيادة الحزب على سيادة الامة . والحكومة ناشئة من الاحزاب كلها . نعم قد كان الرئيس من هذا القبيل رئيس حزبه لا رئيس الامة جمعاء . ولكنه كان ايضاً رئيس الامم الصغيرة المظلومة في العالم باسره ، تلك الامم التي كانت تنظر اليه نظر العليل الى الشمس والسماء ، وهي تؤمل ان يجيئها من يده الخلاص والحرية . نعم يا بني ، اني لا ابالغ اذا قلت انه وان كان سياسياً رئيس الحزب الدمقراطي فقط فقد كان معنوياً رئيس الامم جمعاء . ولكن القوة المعنوية لم تؤثر في سياسة ذلك الزمان الاوروبية ، التي تواطأت واعداءه عليه . وقد كان ولسن من هذا القبيل كمن يفادي مجاناً بنصف ميراثه ، كمن يرمي بنصف ثروته في البحر . اجل ، قد افقر الرئيس نفسه سياسياً ، قد شطر قوته بيده شطرين ، وترك عند سفره الى اوروبا شطراً منها وراءه يسعى في مقاومته .

ولا احد ينكر اليوم ان الحزب الجمهوري ساعد الساسة الاوروبيين في تحقيق مقاصدهم الاستعمارية ومطامعهم الدولية بل ضرب الحرية ضربة اقعدتها ، دوختهـا يا بني عشرين سنة . اجـل ، قد غُلب ولسن في ذلك الزمان لا بقوة الحجة ، ولا بسداد الرأي ، بل بمساعدة اعدائه في هـذه البلاد . فعقدت

تلك المعاهـدة في فرساي ، المؤسسة على الانتقام والاثرة ، وكانت الغرامة الحربية التي فرضت على المانيا اهم ما فيها .

معاهدة فرساي ، وحق الغالب لا حقوق الامم معزز فيها ، لا تختلف يا بني عن معاهدة فيانا . وقد رضي العالم المتمدن بها لانه كما قلت كان قد شبع حرباً ، وقرف السياسة والمتـاجرة بالسياسة . بل كان والحق يقال منهوكاً ، مستضعفاً ، سقيماً .

على ان الامم الصغيرة الجديدة التي ذكرتها تنبهت بعـد بضع سنين الى الخدعة الدولية وعلت فيها صرخـة الاحزاب الوطنية . فتضاربت الاراء والمصالح ، وتباينت المقاصد والغايات ودقت طبول التمرد والعصيان ، فتفجرت براكين الثورة في الشرق الادنى وفي البلكان ، فتدخلت الدول العظمى بشؤونها واحتلت بلادها بضع سنين . مثل ذلك احتلال روسيا قسماً من بولندا ، واحتلال المانيا قسماً اخر ، واحتلال النمسا قسماً من اراضي السرب .

اثارت هذه الحركات الرجعية ثائر الشعب العـام او بالحري العمال من اشتراكيين وبلشيفيين وفوضويين فأخـذوا يترقبون الفرص للوثوب على الحكومات الجمهورية المالية — حكومات الوجهاء والاكابر — او بالحري الحكومات القيصرية الجديدة التي تواطأت وامراء المال وارباب الكنيسة في قديم الزمان .

قلت يا بني ان ذلك السلم الذي عقـدت عهوده الدول

الغالبة انما كان سلماً تقليدياً . اي انه كان مبنياً على مصالح الدول الاوروبية الكبرى في بلادها ، وخارج بلادها ، وعلى مطامعها المالية والاستعمارية والتجارية . فقد قيدوا المانيا بغرامة تكاد توازي ثروتها كلها ، وتقاسموا مستعمراتها ، وقطعوا الطريق على تجارتها . زد على ذلك ان انكلترا احتلت فلسطين والعراق . واحتلت فرنسا سوريا . واحتلت ايطاليا قسماً من البلاد الافريقية العربية ، ثم استولت على مراسي بحرية في الادرياتيك ادعاها الجوغوسلاف والسربيون . كذلك سادت البورجوازي سيادة مطلقة ، فتبك الوجهاء والاكابر ثلاثين سنة وهم متقلدون زمام الاحكام ، قابضون على ناصية الزمان .

أجل ، يابني . ان معاهدة فرساي قسمت العالم المتمدن قسمين كبيرين أساسيين ، قسم الحكام وأنصارهم من ذوي المصالح المالية والتجارية ، وقسم العمال الذين كانوا يحتجون من حين الى حين بالاضراب عن العمل وبنهضات ثورية محلية لم تأت بكبير فائدة .

استمرت هذه الحال ثلاثين سنة عاد فيها العالم المتمدن الى تقاليده السياسية القديمة . ساد فيها حزب المحافظين بل الرجعيين في كل الجمهوريات وأممت الامم بالمنافسات التجاوية والتكالب المالي . ومن أشد هذه المنافسات وأخبثها ما نشأ منها بين انكلترا واميركا . ففي سنة ١٩٢٥ كانت بحرية الولايات المتحدة البحرية

الثانيـــة في العالم ، وظلت تزداد عدداً وقوة حتى كادت تفوق البحرية الانكليزية . وقد جرى بين هاتين الامتين ما جرى بين انكلترا والمانيا قبل حرب الامم من المباراة في بناء الاساطيل والطيارات .

زد على ذلك ان الولايات المتحدة التي لم يكن لهــا بواخر شحن تذكر قبل الحرب أصبحت بعدهـا في الصف الاول من قوات البحار والتجارة . ولكنها لم تستطع بادىء ذي بدء أن تجاري انكلترا في اجور الشحن لان النوتيين الاميركيين يتناولون أضعاف اجور النوتيين الانكليز . فاضطرت لذلك الشركات الاميركية أن تستأجر نوتيين من الاجانب وفيهم من أتبـاع المملكه البريطانية . فامتعض لذلك ارباب الشركات الانكليزية وسعوا لدى حكومتهم فاحتجت مراراً من اجلهم . ولكن حكومة واشنطون وهي تميل بسمعها الى الشركات الاميركية لم تسمع احتجاج الحكومة الانكليزية . التجارة يابني التجارة ! انما هي ام الحروب . والزعماء والوزراء والسياسيون والصحافيون آلات كلهم بيدها .

قلت ان اميركا كادت تفوق انكلترا ببحارتها وبتجارتها . بل فاقتها واجتازت حدودها كل البحـار . فصرنا نرى البواخر الاميركية تحمل البضاعة الاميركية والانكليزية والافرنسية الى الصين واليابان والهند واوستراليا والشرق الاقصى . فضلاً عن

جمهوريات أميركا الجنوبية التي حلت اميركا فيها محل المانيا التجاري قبل حرب الامم . ولا بد في مثل هذه المناظرة التجارية الشديدة ، وهذا التحاسد والتضاغن ، من شر يستثمره السياسيون ويساعد في تعميمه الصحافيون ، والزعماء الطامعون بالثروة والسيادة. لا بد في مناظرة تجارية وسياسية بين امتين من يوم تتفجر فيه براكين الطمع والحسد والضغينة . وكذلك كان .

فقد اضرب عن العمل في احد المراسي الشرقية النوتيون الانكليز فشاركهم بالاضراب بعض النوتيين المشتغلين في بواخر أميركية كانت راسية هناك . فاستخدمت الشركة الانكليزية نوتيين من الاهالي ، فهددهم المضربون بالقتل اذا اشتغلوا ، فحدث بين الفريقين مناوشات اضطرت الحكومة المحلية ، وهي انكليزية ، ان تخمد نارها بالقوة العسكرية . فأطلق العساكر الرصاص على المضربين وبينهم من رفعوا العلم الاميركي ، وكان ممن قتلوا بعض النوتيين الاميركيين .

نقل البرق خبر هذه الحادثة فنشرته صحف الاخبار بالقلم العريض « قد اهين العلم الاميركي ، قد قتل عدد من المواطنين الاميركيين » ! فثار ثائر الناس ، وفي مقدمتهم السياسيون والصحافيون ، على انكلترا ، ولكن صحف لندن روت الحادثة على غير ما روتها صحف نيويورك وقالت ان الحق على المضربين ، وان جنود بريطانيا العظمى عملوا الواجب عليهم .

ولما شرعت الصحافة الاميركية تنادي وتصيح « الحرب الحرب ! » نهض العمال والنساء يحتجون عليها وعلى الحكومة . ولكن احتجاجهم لم ينجح . طلب الرئيس من الحكومة البريطانية عذراً او تعويضاً ، فأبت ورفضت بتاتاً . تدخلت فرنسا والمانيا واليابان في الامر ، ولكن النعرة السياسية والمصالح التجارية تغلبت على كل احتجاج وكل اعتراض . أشهرت اميركا الحرب على انكلترا وشرعت توًّا تجهز الجيوش . وكذلك فعلت انكلترا . ولكن الايام حبالى بالمعجزات يابني . ونهضات الامم تنمو سراً نمواً بطيئاً ، فتظهر فجأة لتطهر المجتمع من امراضه وادرانه .

اجل ، يوم صدق الرئيس على شريعة التجنيد الاجباري ظهرت في الامتين الاميركية والبريطانية قوات العمال دفعة واحدة وقد توحدت كلها كلمة ، وقصداً ، وعملاً .

كلمتنا السلام ، وقصدنا السلام ، وعملنا السلام ، وحجتنا السلام .

عزلاً وقفنا أمام دار الحكومة نرفض حمل السلاح ، لا دفاعاً عن انفسنا ولا دفاعاً عن الامة .

عزلاً سرنا في الاسواق ، وفي مقدمتنا النساء حاملات البنود البيضاء لا الحمراء ، وبينهن امهات من سفكوا دماءهم في حرب الامم .

عزلاً اجتمعنا في الساحات العمومية ، وبيننا الوف ممن

خاضوا عباب حرب الامم ، ونجوا منها مشوهين مثلي .

لا يابني ، لم ننسَ تلك الحرب واهوالها ، ولم تنس النساء ويلاتها ، ولم تنس الامهات أحزانهن . نهضنا واخواننا البريطانيين نهضة واحدة على الحكومات المالية التجارية الطاغية . لست انسى حياتي يوم امرت جنود الحكومة بتبديد اجتماعنا امام دار الحكومة . أمرنا بالذهاب الى بيتنا فابينا ، فامر الجنود باطلاق الرصاص علينا . تباركت تلك الساعة يابني ، وتبارك الاخاء والولاء . فلما امر الجنود باطلاق الرصاص رموا سلاحهم الى الارض واسرعوا الينا يعانقوننا . تعانق الجنود والعمال يابني ، واتحدنا على العدو ، عدو التمدن والانسانية . نعم ، قتلنا في تلك الساعة الحرب في مهدها ، وأسقطنا حكومتها واربابها . في تلك الساعة يابني أشرقت شمس الاخاء والحرية لاول مرة في العالم .

اجل ، قد سقطت حكومة واشنطون وحكومة لندن في اسبوع واحد واخذت ثورة العمال السلمية تمتد وتنتشر في فرنسا والمانيا وروسيا والنمسا وايطاليا . سطع نورها في امم اوروبا واميركا جمعاء . بُعثت البلشيفية من قبرها وقد طهرها الفشل والزمان ، فاستولت وهي عازل على زمام الاحكام في العالم المتمدن . وكانت النساء ، تبارك اسمهن وجنسهن ، العامل القوي في فوزنا فوزاً مبيناً .

عصينا يابني ، تمردنا ، خلعنا نير الطاعة لحكومات تجارية

طاغية . انتصر السلم نصراً مبيناً . فازت الحرية والاخاء فوزاً باهراً . رفع العمال راياتهم البيضاء لا الحمراء في كل العواصم الاوروبية . وبعد ان استتب حكمهم الدمقراطي الاشتراكي عقدوا موتمراً في نيويورك قرروا فيه ثلاث مبادىء اساسية :

اولاً : استيلاء الحكومة على الشركات العمومية كلها .

ثانياً : تحديد ثروة الشركات التجارية والمالية وثروة الافراد .

ثالثاً : تاسيس شركة للحكومة عمومية في كل ولاية ، رأس مالها ما زاد من ثروة الافراد والشركات الخصوصية ، فينفق ريعها على المشاريع العمومية ، والمعاهد العلمية والفنية والصحية.

وقرر الموتمر ايضاً مبدأ الرئيس ولسن في الحكم الذاتي الاختياري ، لكل الامم صغيرة و كبيرة . فجلت انكلترا عن الهند وعن مصر ، وجلت فرنسا عن سوريا وعن المغرب الاقصى ، وخرجت المانيا وروسيا من بولندا ومن المستعمرات الجديدة التي احتلتها . ثم تأسست جمعية الامم التي استولت على جنديات وبحريات الامم المشتركة بها . و كان رئيسها الاول رئيس احزاب العمال الاميركية

وحكم العمال الذي نحن فيه الآن يابني هو الحلقة الرابعة من دائرة الاحكام البشرية التي ذكرتها . فمن الحكم الابوي اي حكم الحكماء ، الى الحكم الاستبدادي أي حكم الملوك والامراء ، الى الحكم الدستوري أي حكم الوجهاء والمتمولين ، الى الحكم الاشتراكي اي حكم العمال ، الى الغد يابني ، ولكنما الغد لله .

رفيق السفر والمؤتمر

قد كان اول اجتماعي بـه في مؤتمر واشنطون لتخفيض السلاح . وهو يمثل جريدة نيويوركية يكتب اليها رسالة كل يوم دون ان يحضر اجتماعات المراسلين بمحدثي الوفود المختلفة او يؤم وزارة الخارجية متسقطاً الاخبار . ومع ذلك كان يكتب المقال الذي لا يحتاج الى كثير عمل ومشقة ويقبل لقاءه مبلغاً من المال . وكان يقبل ايضاً دعوة سيدات واشنطون الغنيات في حال ان ليس بينه وبين امثالهن ما يحلل الخبز والملح . فهو اشتراكي وهن في غير تلك الحال لا يرين فيه ما يوجب غير التفاتة يمازجها شيء من التنازل والازدراء . الا ان الغرائب تعددت في ايام ذاك المؤتمر . كيف لا واللورد . . . يتناول الغداء واحد المراسلين – اننا يا سيدي في بلاد دمقراطية . والمسيو ستيفان لوزان (رئيس تحرير الماتان) يمشي الى ادارة احدى الجرائد وفي جيبه مقال مكهرب موضوعه لا شيء ، عند احتياجه الى المال . والمستر بلفور – عفواً ، اللورد بلفور – يجيء بنفسه ليحدث المراسلين فيشرح لهم الفرق من وجهة ادبية بين الغازات السامة والطيارات المدمرة ، ويتفلسف في شرعية استعمال الطيارات مثلاً وعدم شرعية الغازات .

وهذه بعض الشعوذات السياسية التي نجا صديقي منها . اما زملاؤه المراسلون فما كانوا لينظروا اليه بعين الاهتمام التي كانت لسيدات واشنطون الغنيات ، او لتلك الجريدة التي كانت تنشر رسائله وتعلن عنها كأنها الدواء الوحيد لادواء العالم كلها . قالوا ان حرفته التشاؤم و كفى . اما انا فاحببت الاجتماع به لانه كان ينصر مبادئ طالما روضت هذا القلم في خدمتها ، ويجاهد في سبيل الانسانية جهاداً مبروراً يستحق احترام كل من اخلص الحب للانسانية . هذا من حيث التعارف والائتلاف . وهنالك امور تناكرت — او بالحري تناقضت — حببت الينا الاجتماع . منها انه يكتب من اليسار الى اليمين وانا اكتب من اليمين الى اليسار ، انه غربي انكليزي واني شرقي عربي ، انه ممثل اكبر جريدة في المؤتمر واني ممثل اصغر الجرائد ، انه مادي محض واني مادي روحي معاً . كل هذه حببت الينا الاجتماع فاجتمعنا وكان ذلك في نزله قبل العشاء .

وكنت قد طالعت بعض تآليفه واطلعت على رسمه في احدى المجلات فاعددت نفسي الى خُبر يكذب الخبر — كما هي العادة في اكثر المؤلفين — ووعدتها بخيبة الامل . فما كان شيء من الاثنين . لان المستر ولز [١] شبيه برسمه وان كان غير

---

(١) هو الكاتب الانكليزي الشهير هـ . ج . ولز H.G. Wells

ما نتصوره في وجوه الاشتراكيين • وانه ليصح فيه ما قالته ام (برنارد شاو) في الكاتب المعروف (كننغهام غراهام) :
« هذا الرجل لا يشبه الاشتراكيين بل يشبه الرجال الاماجد »
والمستر ولز من الاماجد ، ولا غرو . وله فوق ذلك من رونق الشباب مايدهشك جداً اذا علمت ماعدد سنيه وعدد مؤلفاته .
اما المؤلفات فلا تقل عن الخمس والاربعين • فهب انه بدأ يكتب في سن العشرين وكان له في كل سنة كتاب لكانت سنه ٦٥ ولكن الحقيقة هي خلاف الرقمين . فهو في السادسة والخمسين من سنه ، وفي السادسة والاربعين من شبابه . يسلب الزمان عشر سنوات وهو مطمئن الى الزمان . هذا هو المستر ولز ، وهذا ما ادهشني منه عند اول مقابلة .

واننا اذا سلمنا ان هذا الروائي المؤرخ لا يتحرى في ما يكتب الترسل والابداع او الاشتهار باسلوب خاص فان غزارة مادته ، وسعة علمه ، وكبر همته التي لا تعرف الكلل ، وخلاء وجهه من اثر العمل في التوليد الدائم ، بل من دلائل التعب والملل ، لما يستحق الذكر ويستوجب الاعجاب . فهو في حركاته وفي وجهه وفي اطمئنان نفسه وفي ظاهره المادي . اجمالاً شبيه بقسيس لم يعمل في حياته عملاً غير تحبير المواعظ او انتحالها .
وللمستر ولز ايضاً مواقف في الوعظ . الا انها غير مواقف المحترمين اصحاب الانجيل . فقد وعظ ضد كل شيء في العالم

ولم يستثن الديانة المسيحية . وهو تلميذ الاستاذ هُكبسلي ومن انصار مبدأ النشوء والارتقاء الثابتين .

وما همني من امره تلك الليلة غير نظرات في الاسـلام والامم الشرقية في كتابه « موجز التاريخ » فانه بعـد تأليفه هذا الكتاب ، وبعد رجوعه من روسيا ، وفي معالجته موضوع « الحرب والسلم » في واشنطون ، اصبح شبه نبي اجتماعي بـل امسى طبيب العالم باسره . وما هو مثل بعض الاطباء يصف الدواء الواحـد لكل الادواء . بل له وصفات خاصة لا تزال تستغوي المطلق من العقول . وانا في السياسـة وفي الدين لا ازال مطلق الرأي والعقيدة . لي في الصحيح من تعدد المذاهب شغف يغتفر عنده التنقل والغزل . وقد كان لي بعد موعـدي مع ولز موعد مع الزعيم الشاب السياسي الصيني والنغتون كو .

قد اجتمع الشرق والغرب في واشنطون وتنازعا ثم عقدا معاهدة . الا انهما لم يتفقا على نظام ادبي واحد في السلوك السياسي تتبعه الدول جمعاء . وهذا لعمري سبب المحنة ، بل سبب المحن السياسية كلها في العالم . فاذا كان الشرق يتوق الى وطنية غير معادية لاوروبا ، بل هي بالعكس بنت التهذيب الاوروبي ، واذا كان الغرب في تطوره السياسي ينحو نحو اشتراكية تعطف على وطنيات الشرق الناشئة نشأة جديدة ، ثم تسير هاتان النهضتان في خط مستقيم الواحدة نحو الاخرى ، فالى متى ياترى نعمد في

حلنا المسائل الاجنبية الى ما ألفناه من تعصب في التشريق او التغريب ؟ الى متى تبقى المسألة مسألة شرق وغرب ؟ ومتى تصير مسألة عدل وادب وكفاءة ؟ هذه من المسائل التي سألتها المستر ولز تلك الليلة .

ولا اذكر انه اتقاها أو أجاب صريحاً عليها . قال : « ان اوروبا سائرة الى الدمار ولكن لا يزال عندها أشياء يمكن أن يستفيد الشرقيون بها . وخير لهم ان يسرعوا » فقلت : « اذا كانت اوروبا أو بالحري المدنية الاوروبية في حال النزاع ، والشرق الحر الناهض الذى يفك رويداً رويداً قيوده القديمة ينظر اليها نظر المعترف بالفضل المستمد الاسعاف ، فماذا عندكم تمدوننا به ؟ ما هي عندك طريق الخلاص ؟ »

فاجاب المستر ولز قائلاً : « العلوم التقنية (الفنية) . فان الاستقلال الوطني والاجتماعي موكل بالاستقلال الاقتصادي ولا تفوز الامم بالاستقلال الاقتصادي الا باحسانها العلوم الطبيعية كالهندسة والكيمياء والميكانيكيات كلها . هذا ما يفتقر اليه الشرقيون ويمكنهم ان يتعلموه في كلياتنا . وخير لهم أن يسرعوا »

وهو يقول بالاسراع قولاً مكئباً . كانه يرى قرب حلول مصيبة اشد هولاً من التي لا تزال تخيم بل تغيم على العالم . ولا يرى للروحيات في المحنة او في درئها دخلاً او لزوماً . اذكر انه

قال ان بعض مصيبة الشرق هو استرسال ابنائه في الشعر .

« وما قولك بالدين ؟ »

« انه يتوقف على ما فيه من الخير العملي . كلنا نكره التدجيل كما انا نكره التدين الآلي . ولكن في القرآن اشياء كثيرة حسنة تكاد تهمل . فحبذا تجديد الحياة فيها واهمال القديم المنافي لخير هذا الزمان، المعادي لطبعه . ناهيك بان القرآن عروة الاسلام الوثقى . او هو في الاقل وسيلة يحسن استخدامها في تحقيق الوحدة الاسلامية . وان وحدة أية امة من الامم مفيدة لها ولغيرها . فالوحدة تعيد اليها كرامتها وتوجب عليها القيام بعهودها. اما الاسلام اليوم فمشتت الشمل، مبدد القوى . ولو لم يكن لدى المسلمين من واسطة الى لاتحاد لوجب عليهم اختراعها. ولكن كتابهم خير واسطة . خذ لك مثلاً شخصياً : لست ممن يؤمون الكنيسة للصلاة ، ورأيي في الدين انه لا يزال في حال الامتحان والتجربة . فالكلمة المتناهية حكمةً لم يُنطق بها بعد لا في الكنيسة ولا خارجها ، ولا في الشرق ولا خارج الشرق. ومع ذلك اني على يقين تام من امر واحد . واذا كانت انكلترا في خطر من الاحتلال الاجنبي — العربي فرضاً — وكان ابناؤها مشتتين مبددين في اربع زوايا لارض دون رابطة تربطهم بعضهم ببعض فلا اتردد في دعوتهم الى الانجيل بل اتخذ الكتاب المقدس شارة جنسية ، وعلماً وطنياً ، وعروة شاملة في الوحدة القومية .

قلت : « من رأيـك اذن ان يتمسك المسلمون بالقرآن ويتعلموا العلوم الطبيعية ؟ »

قال : « أوَ لا ترى ان ذلك خير لهم ؟ »

ان المستر ولز على جانب عظيم من اللطف والذوق ، فلا هو يحتكر الحديث ولا يبدي رأيه كأنه اية منزلة . وقد ظهر لي انه لم يحط علماً بالاسلام ، وما ساح قط في بلاد اسلامية ليدرك الفرق الاساسي بين شعب انكليزي يعتصم طالباً الوحدة بالانجيل وشعوب اسلامية مختلفة متعددة تعتصم بحبل الله وبكتابه للغاية ذاتها . فالشعب الانكليزي اليف الفكرة العلمية الحرة وان لم يكن متطرفاً فيها مثل المستر ولز . وهذه الفكرة – أُم التهذيب والعلم – التي تشترك بها الامم الاوروبية الراقية تقي الانكليز ، في عودتهم الى الانجيل كرابط سياسي ، من الرجعية ، من التقهقر ، بل من تجديد الحروب الدينية . اما الشعوب التي لم تعرف في تاريخها كله ولا في ادواره الباهرة مظهراً من مظاهر الحكم المدني البحت ، والتي لا ترى في دنياها ما هو جدير بالنظر والاهتمام غير ما كان له صلة في الدين والاخرة ، لا يخلو رجوعها الى كتابها تحقيقاً للوحدة السياسية من اخطار التعصبات الدينية واضرار النعرات المذهبية . والخطة المثلى لمثل هذه الشعوب – الخطة التي استحسنها بعدئذ المستر ولز وفضلها على الاولى – هي ان تسعى في تحقيق الوحدة الجنسية القومية لا الوحدة الدينية .

ولكننا وقفنا تلك الليلة عند هذا الحد في الموضوع . ووقفت استأذنه بالخروج لان الساعة كانت الثامنة وما كان قد لبس ثوب المساء للعشاء . الا انني في الختام اثنيت على روايته الاخيرة التي طالعتها بسرور واعجاب وهي في رأيي أحسن رواياته واقصرها . ولها مقدمة هي من الابداع بمكان . فقد تحرى في شكلها سفر ايوب ، الا ان المساجلة هي بين الله والشيطان فقط . وقد اختلق المستر ولز شيطاناً جديداً له ذوق وادب ، وله كذلك المام بالعلوم وعلى الاخص علم النشوء والارتقاء . سأل الله الشيطان قائلاً كما قال قديماً في سفر ايوب : وماذا تعمل في الارض ؟ فأجابه الشيطان : احرك فيها من اجلك .

قلت للمستر ولز اني تشرفت بالتعرف الى شيطانه واني أعرف شيطاناً آخر يشاطره الذوق والادب . وهو فذ بين اقرانه . شيطان عربي ، تلفيق اديب عربي :

« هل قرأت في كتاب الف ليلة وليلة قصة ابراهيم الموصلي ليلة كان أرقاً ضجراً – ولكنني اوءخرك عن موعدك »

« لا ، لا ، قصها علي . الناس في واشنطون لا يتعشون قبل الساعة التاسعة »

فقصصت عليه قصة ابراهيم والشيطان الذي زاره نصف الليل فقال المستر ولز ضاحكاً : « حقاً هو لطيف كريم . يغني للمغني ليسليه »

فقلت مصححاً : « بل ليعلمه اغنية جديدة »

« نعم ، نعم . وعلّ الشيطان ان يعلم العالم عقيدة جديدة »

ومدّ يده يصافحني فقلت : « وقد يكفي ان يحرك العقائد القديمة فتبخر ثم تصفى . مساء الخير »

وكذلك انقضت ساعة لذيذة مع المستر ولز . الا انه غاظني بعد أيام في مقال اشار فيه الى « السوري المسلم » الذي زاره . وما زرته ليكتب عني . ولم أتمالك ان بادلته « الفضل » في مقال لي . وكان قد القى المسيو بريان خطابه الشهير في المؤتمر فاستشاط المستر ولز غيظاً ونسي تعاليمه الاشتراكية والدولية كلها في ما كتبه في فرنسا ومطامعها . فلقبته اذ ذاك بالاممي [1] البريطاني . ولم نجتمع لا حرباً ولا سلماً في واشنطون بعد ذلك .

- ٢ -

في صباح يوم من يناير اشتد برده كانت السيارات الجميلة تتقاطر نحو البحر في نيويورك ، فتقف امام مرسى احدى البواخر الكبرى ويخرج منها الامير كيون رجالاً ونساء وقد جاؤوا من اقاصي الولايات المتحدة وادناها ، وهم الى السياحة التي فطموا عنها مدة الحرب اشد شوقاً من الصياد الى الطير ومن الطير

(١) لاشتراكيون هم مبداء أمميون او دوليون Internationalists اما لاشتراكي الوطني او الاممي البريطاني فالتناقض ظاهر فيه . واظن الاممي اقرب الى معنى Internationalist من الدولي .

المسجون الى الفلاء . أضف الى هذا النشاط وهذه الحالة النفسية بهاء في الملابس والامتعة ، واثرًا ظاهرًا في الغنى ، وامثلة باهرة في الجمال ، فيتجلى لك رهط السياح الاميركيين : يبهج العين ، ويلمس القلب ، ولا يمس العقل الا نادرًا . يوقظ العواطف ولا يحرك فكرًا . وهم خلاصة الناس يرحلون مدركين اهمية الرحيل واهميتهم . يفرون من برد اميركا طالبين الشمس في مهدها ، راغبين بنسيمات السحر في ال (ريفيارا) ، وبعليل الهواء في وادي النيل .

وكنت قد ودعت نيويورك ومحجتي غير محجة السياح ، وفي صدري امل غذته السنون وتمهدته الحوادث . فما تلفتت مني لا العين ولا القلب عند ما ابحرت « الادرياتيك » ومرت بتمثال الحرية . كنت وحدي . ولم يخطر قط في بالي ان سألتقي بين ذاك الرهط الفخم احدًا اعرفه . ولكني وانا سائر الى غرفتي التقيت على الدرج برفيق المؤتمر المستر ولز . وكان قد ودع واشنطون مثلما ودعت نيويورك وفي نفسه من المؤتمر ومن مهمته الصحافية ما افصح عنه الوجه تعباً وضجرًا . ولا غرو اذا كان قد سئم السياسة وراح يطلب زاوية في بلاد الله يفوز فيها بالعزلة وبشيء من النزهة .

قلت ان ظاهر المستر ولز لا يدل على حقيقة امره ، فهو اشبه بالتاجر الغني منه بالمؤلف والفيلسوف . ومع ان كلمة

يكتبها اليوم يردد صداها في العالم المتمدن كله ، ومع ان نفوذه الادبي والسياسي اشد من نفوذ كثيرين من ساسة اوروبا ، فهو على جانب عظيم من البساطة والاتضاع. لا تكلف في لبسه ، ولا في حديثه ، ولا في سلوكه . يعتزل الناس الا ما كان فيهم من حسن الوجوه وحسن القدود . وهو من رسل الاطلاق في الحب بل الاطلاق في امور عديدة من الحياة الدنيا . الا انه لا يطارد على ما علمت ولا يصول . قال لي احد المسافرين وكان كرسيه الى جنب كرسي : « يقال ان في نية المستر ولز ان يكتب لنا انجيلا جديداً . فيا لها من مصيبة »

وعند ما اخبرت المستر ولز بخوف جاري وتشاؤمه قال ضاحكاً : « بل احب ان اصحح او اعيد كتابة بعض فصول من التوراة » . ليس الرجل لامعاً في حديثه ولا يجيء بالنكتة او بظريف الجواب الا نادراً . وان ما فيه من الاخلاص والرصانة ، والحصافة والاستقامة ، ليشفع حتى بالمبتذل احياناً من آرائه . ولكنه في حديثه مع السيدات ابرع منه مع الرجال . وعنده شيء من المجون الانكليزي الذي اشبهه بمن يلبس نعلاً من الكوتشوك فلا تسمع اذا زارك وطأ قدميه . لا اريد بذلك ان مجون المستر ولز خداع غدار يجيئك من حيث لا تدري . بل هو من النوع الذي تسرك اشارته ولا يسوءك صوته . وكان لي منه حظ يذكر بالرغم عمن كان يميل اليهن من السيدات

ومن يحمن منهن حوله ، فكنت احتفظ كل يوم بأثر من نفسه وبشيء من حديثه . وقد كان لنا جلسة ذات يوم طويلة تبادلنا بعدها التآليف وكتب هو على كتابه : « الى امين الريحاني ، بعد حديث مستحب في مواضيع هذا العالم — عالما »

وفي ذاك اليوم بعد ذاك الحديث سألتني احدى السيدات : « وهل من صحة لما يقال من ان للمستر ولز اربع زوجات » . فقلت « هو يعجب بالمسلمين ولكنه على ما اظن لم يعتنق حتى الان الاسلام » . فاجابت على الفور : « ليس من الضروري ان يعتنق الاسلام » . وفي جوابها ما يشير الى باب من ابواب النهضة النسائية الحديثة في اوروبا واميركا . فاذا وصلت الى الباب تقرأ ما كتب فوقه وهي كلمة واحدة : المساواة .

وللمستر ولز في فلسفة الزواج الجديدة اسهم عديدة ، منها ما يشق كبد الاصطلاحات ، ومنها ما يصيب كبد الحقيقة ، ومنها ما يرمي في الهواء فلا ندري اين يقع وماذا يصيب . الا ان سلوكه في الحياة لينطبق على مبادئه وتعاليمه . أي انه مطلق الحرية والتصرف في انتسابه السياسي مثلاً وفي اختياره الجنسي . وهو وان كان له اكثر من زوجة واحدة — ليس لي ان اثبت الامر او انفيه — لا يدعي العصمة ولا النبوة . وهو وان كان اشتراكي المبدأ ، لا يحترم كارل ماركس مثلاً ولا يحتقر لويد جورج ، ولا يرى في ضيافة الاغنياء ما يراه الشيوعي القصير النظر .

ان التعصب الاعمى لمن الاثار القديمة . والمفكر المهذب الحصيف يسير مع الزمان وابناء الزمان موالياً في ما لا ضر فيه . ولا يطلب من الناس غير الصدق في القول ، وكرم الاخلاق في العمل ، وحسن الذوق في الاثنين . وقد يقنع احياناً بحسن الذوق فقط . الا ما اسخف الرجل الذي يفاخر دائماً بماله او بدينه أو بمذهبه السياسي وما اثقله . ان اهم ما في الحياة الناس . ومن يحفظ التوازن بين شوءون الناس وقضايا الحياة كلها انما هو صديقنا الاكبر ومعلمنا ، بل هو من المحسنين الينا .

ولا ابالغ اذا قلت ان المستر ولز من هوءلاء الافراد القلائل في العالم . فما ضره اذا لبس مثل التجار الاغنياء ونام في كرسيه على ظهر الباخرة مثل سائر الناس — وغط كذلك — وما ضره اذا لعب بالورق مع السيدات ؟ انه طالب راحة ونزهة . وهل في كل الجمال البشري ما يرتاح اليه المرء ارتياحه الى وجه جميل وابتسامة جميلة ؟ فضلاً عن ان الروائي يرغب دائماً بالحياة على اختلاف مظاهرها . يبحث دائماً عن موضوع ، عن عروس ، عن حادثة — غريبة او جديدة — لرواياته .

حدثني ذات يوم مراسل ايطالي كان معنا في موءتمر واشنطون وكان في الباخرة ، وهو شاب جميل ، نقطة دائرة من الاوانس باهرة . قال ينتقد كتاب المستر ولز « موجز التاريخ » ان الفصول

المختصة بتاريخ ايطاليا مفعمة بالاغلاط والمقدمات الفاسدة . ولا يدرك ذلك الا المؤرخ الايطالي ومن كان متضلعاً بتاريخنا . اتما المستر ولز روائي لا مؤرخ » فقلت انه اكثر من روائي واكثر من مؤرخ . هو فيلسوف ومصلح وحكيم . والمؤرخ غالباً عقيم وان اجتمعت فيه مزيتا الفلسفة والحكمة . لذلك نفضل تاريخ ولز بما فيه من الاغلاط على تواريخ لا اغلاط فيها ولا حياة . اما النوع الاول اي الخالي من الاغلاط فغير موجود والنوع الثاني نادر جداً . وقد لاحظت ان في فصول اخرى غير التي اشار اليها الكاتب الايطالي قرُب المستر ولز من الحقيقة ولكنه لم يفز بها . وعل اشارة خير من عبارة .

انتقلت ومحدثي من التاريخ الى الفنون . وبينا كان يتكلم عن النهضة الفنية الحديثة في ايطاليا وثبت منه نظرة اوقفت الكلمة على لسانه ، فغير الحديث هاتفاً : « لله هذه الفتاة . أتعرفها (وكانت قد مرت بنا اجمل فتاة في الباخرة) هي ابنة السيدة التي تجلس الى المائدة قرب المستر واز . وهو حتى الان لم يعرفني بها . أكذلك يكون المؤرخ الحقيقي » ؟ فتأكدت عندئذ ان حسد الكاتب هو حسد القلب ، لا حسد الادب .

— ٣ —

ليس للمستر ولز خطة اشتراكية او طريقة عملية لاصلاح العالم . فهو اليوم اشتراكي علماً لا اشتراكي عملاً . وقد يقبل

الهيئة الاجتماعية والسياسية الحاضرة بما فيها من المنكرات الى ان يحدث حادث يقلبها بطناً على ظهر . وانه في ما يكتب يمهد السبيل لمثل ذا الحادث بل يستسرع يومه . وله في المستقبل نظرات هي في الغرابة مثل نظرات المستر برنارد شاو ، الا ان لها حالة علمية وفيها لب النشوء والارتقاء . في المستر ولز سلامة ذوق يتخلله شيء من المجون ، وفي المستر شاو مجون يتخلله شيء من سلامة الذوق .

قلت للمستر ولز : « اذا كان الحب المطلق والاسرة كما هي اليوم يتناكران ويختلفان فايهما تنبذ . بل اي منهما انت تنصر ؟ » فاجاب قائلاً : « لا بد للقائل بالحب المطلق ان يتنازل عن بعض اشيائه لكي تصان الاسرة في حالها الحاضر الى ان يصير امرها الى الحكومة فتأسس دائرة خصوصية تتولى شأنها »

ولو سألت المستر شاو هذا السؤال لقال لي : « اذا كان القائل العامل بالحب المطلق ذكياً يشتري للاسرة ، التي يهمه امرها ، سيارة من سيارات الحرب . واذا كان قوياً ينصب لها — بدون مقدمات — المشنقة »

غني عن البيان ان نتيجة مبدأ المستر ولز الحاضر تضر بصالح الفرد وتحول دون نشوءه النفسي والعقلي . بل هي تناقض تعاليمه الاساسية في الاجتماع . وهو يدرك ذلك ولا يعتذر عنه . قال الشيطان للرب : « اني احركك في العالم من اجلك ولخيرك » .

وفي بستان المستر ولز الاعشاب السامة ، والنباتات الطيبة ، والزهور كذلك والثمار . وهو يفتح لك الباب قائلاً : اهلاً وسهلاً . ولكنه لا يرافقك دليلاً ، ولا يعترض اذا اقتديت بشيطانه وكنت في البستان صاحب حركة فتخلط الاعشاب بالزهور ، لعلك تهتدي الى حقيقة جديدة من حقائق الوجود . ولعل السم في هذا الشعب مثلاً يزيل المرض في تلك الشجرة .

وهناك مبادىء اخرى اساسية في النشوء والعمران ، منها مثلاً ان الانسان لا يزال مصعداً ولم يصل الى اخر درجة من سلم النشوء والارتقاء ، وان الاوروبي — فرداً لا اجتماعاً — لا يزال خاضعاً للناموس الطبيعي القائل ببقاء الانسب وصالحاً للعمل به . ولم يصل كما يظن بعض العلماء الى القنة التي يختنق عندها اذا لم ينكس راجعاً . فالمرء والمدنية من هذا القبيل جسمان مستقلان .

قال المستر ولز : « اننا في بداية امرنا في الاكتشاف والعلم . ولا نزال قيد الاوليات في استخدامنا المبادىء العلمية في الحياة وعلى الاخص في اساليب البحث والجدل . ومن الحقائق التي لا تحتاج الى برهان ان كل ما كان من ارتقائنا في الماضي ليس هو اليوم كما كان . حكوماتنا ، وعلومنا ، وطرائق الحروب ، تغيرت كلها . فهل يعقل انها ستبقى على ما هي اليوم بعد خمسماية سنة ؟ اما اذا قلت : والا تتغير من الحسن الى السيء او من السيء الى

الاسوأ ؟ اجيبك : كلا . وذلك لان نشوء الانسان هو من السافلات الى العاليات ومن السيء الى الحسن دائماً »

وهو يرتأي كذلك ان مبدأ النشو والارتقاء الذي ظهر وتعزز في الشعب السكسوني سيؤهل هذا الشعب ايضاً للعمل الاكبر في تكييف مصير العالم ومستقبله . وما هو بالغريب ان تحاول امة ان تسود العالم بواسطة مبداء علمي اكتشفه علماؤها ، ولكننا نخشى — ويحق لنا ان نخشى — مثل هذه السيادة اذا كانت غير مدعومة بمبادىء اجتماعية شريفة ، وتعاليم روحية سامية .

« اقول ، وعسى الا تظن قولي غروراً ، ان اميركا وانكلترا تتقدمان الامم في سبيل الارتقاء . وتهديانها الى حكومة العالم المستقبلة — الحكومة الاممية »

لذلك دعيت المستر ولز « الاممي البريطاني » وهو بشر مثلي ومثلك لم ينتصر بعد على عوامل الوراثة فيه . ولن تنتصر روحه في الجيل الثاني او الثالث من ذريته على نواميس هي في سيرها ونشوئها وزوالها بطيئة جداً . والبرهان على ذلك ، خذه من مبادىء المستر ولز ذاتها ، بل من التعاليم الدروينية ، وهو يحاربك بها . ولكنه يعتقد ان الحرب حتى بين حقائق الوجود تجلي الحقيقة الكبرى في المثل الاعلى وتقربها من الناس . « فاذا كنا غير مستعدين اليوم للمثل الاعلى في الحكومات فينبغي لنا ان

تقبل المثل الذي يدنو منه وهو الحكم الانكليزي » وهذا مثال من الملجون الذي يحسنه المستر ولز .

لكنه لا يريد بالحكم الانكليزي – كما يتبادر للذهن – الاستعمار او الانتداب . بل يريد التشبه ، الاقتداء ، الاقتباس . « اذا كنا احسنا امراً فلكم الثمرة ولنا . اذا كان دستورنا مثال العدل والحكمة فخذوه دستوراً لكم . ان في الشرق الاقصى اليوم نهضة نحن مديونون بها لاميركا . فقد خطونا في موتمر واشنطون خطوة كبيرة نحو الحقيقة الكبرى في الاجتماع وفي السياسة . اجل ، ان الفضل لاميركا في طرح المسألة الصينية على بساط البحث وحمل الدول على اتفاق اساسي بخصوص الصين . وجوهر هذا الاتفاق ، كما تعلم ، هو ان المساعدة لا تكون في ان تدخل الدول الاوربية الى الصين حاملة الانجيل بيد وبرنامج التجارة باليد الاخرى . بل المساعدة هي ان تخرج من تلك البلاد ، ليس الا . وقد تم في موتمر واشنطون ما كانت الدول تخشاه . فقد اقرت الدول ان تخرج تدريجاً من الصين . كل بلاد لاهلها »

وهذه من المبادىء التي لا يستطيع المستر ولز اليوم الا نصرها . فهو وان كان امميا يدرك ان لا بد من حكومات في الشرق تتقدم الحكومة الاممية التي يبشر بها ويدعو اليها . الوجود قبل العدم . فيجب ان تظهر الحكومة الوطنية في الشرق قبل

ان تزول . وستكون الصين اول الامم الشرقية الكبرى المتمتعة بحكومة وطنية . فهل تكون اول الامم الشرقيـة التي تنبذها ؟ يقول المستر ولز : لا ادري . ولكنه متأكد ان الوطنيات ستعم الشرق كله . فتنتقل من الصين الى الهند ومن الهند الى بـلاد العرب .

– « وستكون سوريا آخر مراحل الوطنية في سياحتهـا الغربية ؟ »

– « كلا . على السوريين ان يبدأوا بالجهاد . فالنهضة اذا بوشر بها في طرفي الشرق – الادنى والاقصى معاً – تكون اسرع في سيرها ونجاحها »

– « وما قولك بمصر ؟ »

– « اني من انصار المصريـين في الاستقلال اذا استثنينا منه ترعة السويس . فلا يجب ان تستولي على الترعة دولة واحدة من الدول ، لانها ممر عمومي في طريق التجارة والاسفار التي تصل الشرق بالغرب . ويجب ان تكون ، والحال هذه ، في يـد حكومة اممية ، او حكومة مؤلفـة من دول العالم الكبرى ، حكومة تكفل حياد الترعـة وشيوعيتها وتحميها . اما الدول الصغيرة فلا تنفع اذا اشتركت بهذا الحكم ، وقد تضر . فهي غالباً تبيع اصواتها في تقرير الامور . نعم ، يحق لمصر ان تكون من الدول المسيطرة على الترعة . وما خـلا ذلك فانا قلباً وقالباً نصير

استقلالها التام »

— « او لا تظن ان في استطاعــة مصر ان تحمي الترعة ؟ »

— « ليست المسألة في نظري مسألة حماية فقط . انت تعلم اني انصر المبدأ الذي يقول بالاستيلاء العــام على طرق التجارة والاسفار العموميــة في العالم باسره . وما نفع المبادىء اذا ظلت الى الابــد في العقل والخيال . ينبغي ان توضع موضع العمل . ولا بد لكل عمل من بداية »

— « وهل تطلب العمل بذا المبــدأ في ترعة باناما ايضاً ؟ وكيف يمكنك ان تنفذه ؟ »

— « نعم ، ان النظريات والمبــادىء خاضعة مثل كل امر من امور الحياة لناموس النشوء والارتقاء . فاذا بدأنا في مصر ننتهي في اميركا »

— « ولكن لمصر — كما لسائر الامم — الحق الاول ، الحق المطلق ، في ارضها »

— « لا يحق لامة من الامم ان تملك ارضاً لا تستثمرها ولا تدع غيرها ان يستثمرها . وعلى هذا القياس اقول ايضاً لا يحق لامة من الامم ان تستولي وحدهــا على طريق عامة من طرق العالم وتقفلها يوم تشاء دون من تشاء من الامم . زد على ذلك انها لا تستطيع — وهذا اشد ضرراً — ان تحميها في زمن الحرب »

ولا يختلف رأي المستر ولز في الامم الشرقية ، اذا جردناه

من المبدأ الاشتراكي ، عن رأي بعض الاحرار من السياسيين الاوروبيين منهم رغم عطفهم على الشرقيين ، لا يثقون بهم حتى الآن الثقة التامة . « ليكن لهم الاستقلال السياسي » يقول السياسيون والمستر ولز ايضاً : « ليتمتعوا بالحكم الوطني . وليتعلموا اثناء ذلك العلوم التقنية والميكانيكية والاقتصادية . واذا كانوا لا يجيئون الى اوروبا لهذا الغرض ، ليكن لنا حق التعليم في بلادهم » . قلت : « وهل تظن ان هذه العلوم تكفي لتقدم الشرقيين ورقيهم ؟ »

فاجاب على هذا السؤال وهو يذكرني بكلمة قلتها في واشنطون اذ سألني احد المراسلين الشرقيين : «ما هو دينك ؟ فقلت : لا دين لي اسيا وروسيا ، ولكني اعتقد بالله ابينا اجمعين واعتقد كذلك بالاخاء البشري .

فقال المستر ولز مجيباً سؤالي : اضف الى العلوم دينك هذا . ولا اظن ان امة من الامم تحتاج اكثر من ذلك — اذا عملت به — لرقيها وعمرانها .

سوريا ولبنان

لا شيء بلا شيء

حقوق الشعوب الصغيرة ، حرية الشعوب الصغيرة ، استقلال الشعوب الصغيرة ، — كلمات يرددها اليوم السياسيون والمصلحون في العالم المتمدن ، ويردد صداها زعماء الشعوب الصغيرة و كتابهم دون ان يدركوا اسبابها ويتدبروا معناها . ونحن السوريين من هؤلاء الشعوب وفينا من مرددي الصدى كثيرون . منهم المتحمس السليم النية الذي يقيس امور بلاده بامور بلاد اقام فيها وجهل تاريخها وتقاليدها . ومنهم الشاعر الناثر الذي يظن ان الكمالات في نظم القصائد وتحبير المقالات . ومنهم الصحافي الذي لا يهمه من الوطنية والاستقلال الا ما جاء منها في شكل الدينار . ومنهم التاجر الذي يجهل حتى تاريخ بلاده ولا يعلم من حوادث الماضي والحاضر الا ما تنشره وتمسخه الجريدة التي يطالعها . وكلهم وطنيون اما قلباً واما قالباً فقط . كلهم على اختلاف نزعاتهم وتباين مقاصدهم ، ينشدون الحرية ويطلبون الاستقلال .

وقد فاتهم ان لا شيء بلا شيء — لا شيء مجاناً .

حقوق الشعوب الصغيرة ، حرية الشعوب الصغيرة ، استقلال الشعوب الصغيرة ، مليح — على الرأس والعين . وقد طالما بشرنا بهذه المبادىء وطالبنا بها بين قومنا في الوطن — حتى في عهد عبد

الحميد – وبين الاميركيين في هذه البلاد . ولكنه ، وان اكبرنا نظرية فيها الحقيقة ، لا يفوتنا عملية فيها حقيقة اخرى . فمن النظريات التي نعتقد بها وننشرها في الناس باللغتين العربية والانكليزية ان ينبغي ان يكون للشعوب الصغيرة ما للشعوب الكبيرة من الحقوق المدنية والسياسية والدينية والاجتماعية .

على انه اذا طالعنا التاريخ وتدبرنا مغزاه يتضح لنا ان الشعوب الكبيرة انما نالت حقوقها بالسعي والجهاد : بالعلم والتهذيب ، بالتضحية والمفاداة . وان لها من القوة المادية والمعنوية ما يمكنها من حفظ هذه الحقوق والدفاع عنها عندما تهضم او تمتهن . اجل ، قد نالت حقوقها بالسيف وصانت حقوقها بالسيف . هذا ما يعلمنا التاريخ ، هذا ما تعلمنا حوادث اليوم ، بل هذا هو معنى الحرب الحاضرة .

وما كان في الماضي بالنظر الى هذه الاصول الاجتماعية والوطنية سيكون ايضاً في المستقبل . فكيف ننال حقوقنا نحن السوريين؟ انظن انها تجيئنا مجاناً من هذه الدولة او من تلك الامة ؟ انظن انها تهدى الينا لوجه الله او من اجل الانسانية والمبادىء الدموقراطية ؟ لا شيء بلا شيء ـ لا شيء مجاناً . الحرية لا تشرى الا بالدم . الاستقلال لا ينال الا بالتضحية .

اذا طلبنا الحرية والاستقلال اذن فبالسيف ينبغي ان نطلبها ، واذا تمّ لنا ذلك فبالتهذيب والوحدة الوطنية نحافظ

عليها . قف معنا عند هذا ايها القارئ . اننا لا نكتب شغفاً بالكتابة ولا نتحرى في ما نكتبه مجرد الالفاظ الرنانة والتنميق الفارغ . ان في كل كلمة فكراً نزيده ونحب ان نقدمه جلياً للقراء . قلنا بالسيف ينبغي ان نطلب حريتنا . اما اذا طلبناها اليوم بغير السيف ـ اذا طلبناها بالكلام بالكتابة بالعرائض ـ وان كنا متحدين في ما نطلب ، فلا ننال منها الا شبه الحرية ، اي الحرية الناقصة المقيدة بارادة من ساعدونا لننالها والمقيدة كذلك بمصلحتهم السياسية . وهذا معقول . لان الطبع البشري وان تغيرت الحكومات لا يتغير . ومن الحقائق الطبيعية ان كل شيء بين الناس وبين الامم متبادل . لا شيء بلا شيء ـ لا شيء مجاناً .

انت مثلاً مظلوم ، وظالمك اقوى منك ، فلا تستطيع وحدك ان تنال حقك منه . ترى نفسك بين امرين ، الطاعة او التمرد ، فتعيش في الحال الاولى عبداً وقد تموت في الثانية حراً . اما اذا احببت ان تعيش حراً فتستعين على الظالم بجارك القوي ، فيقول لك الجار : يدي ويدك عليه . فاذا قلت : لا استطيع ان اقاتل ، يقول هو في نفسه ساقاتل اذاً عنه واتقاضاه من عمله وحريته شيئاً لقاء ما سأبذله في سبيله . وقد يقول لك : ساقاتل اذاً عنك من اجل الانسانية . فتقول : نعم الجار . لو لم يكن دمي من دمه لما كان يقاتل عني ليحررني من ربقة الظلم. ولكن الحقيقة

هي انه لا يقاتل عنك الا اذا كان له غرض فيك .

هذا كلام صريح يفهمه من يقرأ ولو ماشياً . ونحب ان يتدبره السوري ويجرد نفسه من الاوهام . لا شيء بلا شيء ياأخي ، لا شيء مجاناً .

لننظر اذن في الحال التي نحن فيها الان . نحن كامة محرومون حريتنا واستقلالنا . حريتنا بيد الاتراك ، واستقلالنا بيد الدول المتحالفة . فهل نستعيد حريتنا بمجرد ان نطلبها من الاتراك ؟ وهل ننال استقلالنا بمجرد ان نطلبه من الدول؟ هذا غير معقول .

اما اذا وعدتنا دولة من الدول بحريتنا واستقلالنا ودعتنا الى الجهاد معها في هذا السبيل فهل تظنها تفعل ذلك اكراماً لسواد عيوننا ؟ تركيا عدوة الاحلاف اليوم فمن مصلحتهم ان يتغلبوا عليها ، ان يسحقوها . ومن مصلحتنا كذلك . ولكن اذا جاءتنا الحرية بهذه الطريقة السلبية فلا نحن مستحقونها ولا نحن نستطيع ان نحافظ عليها . والحقيقة انها لا تجيئنا صافية تامة الا اذا كان لنا يد في الجهاد في سبيلها .

علينا اذن ان ندعو الى التطوع ، وعلى القادرين منا ان يتطوعوا في الفرقة الشرقية . ذلك لان الفرقة الشرقية وان تكن افرنسية فهي مؤسسة باتفاق خصوصي بين فرنسا وحليفاتها . ونحن ممن يعتقدون بصحة هذا المشروع ، بوجوب هذه الحركة ، بقداسة هذا الواجب . نحن ممن يدعون السوريين الى التطوع

لان التطوع اليوم انما هو الخطوة الاولى الى تحريرنا وتحرير بلادنا ، بل الخطوة الاولى نحو استقلالنا التام في المستقبل .

التطوع لازم اذا كنا نريد حرية واستقلالاً . التطوع لازم اذا كنا نريد ان نكون امة من الامم الراقية المتمدنة . التطوع لازم اذا كنا نحب ان نتحرر من ربقة الظالمين السفاحين . التطوع لازم اذا كنا نتوقع ممن ساعدنا من الدول ان تشاركنا بثمار النصر على العدو . التطوع لازم اذا كنا ندرك الحقيقة الاولية في التعاون والتضحية . التطوع لازم اذا كنا نريد ان نكون اسياد انفسنا واصحاب الرأي والعمل في شؤوننا . واذا كنا لا نضحي بشيء في سبيل حريتنا فلا نحن نستحقها ولا هي تليق بنا . اذا كنا لا نفادي بانفسنا في سبيل الوطن فلا حق لنا به ولا حق لنا ان نعترض على من يحررونه ويعمرونه .

نيويورك في ١٠ تشرين الاول سنة ١٩١٧



لنا ولكم

لا غنى للامم بعضها عن بعض وبالاخص المتجاورة منها . وما من امة مهما عظم شأنها تستطيع ان تعتزل العالم فتقول لبقية الامم : لا حاجة لي بكنَّ ولا حاجة لكنَّ بي . فالتبادل سنَّة الاجتماع ، والتعاضد سنة العمران . قد كان للصين سور هدمته التجارة . وقد كان للشرق نطاق من التقاليد والخرافة قوّض التمدن قسماً منه كبيرًا .

الامم والشعوب في حاجة بعضها الى بعض ، والتعاون والتبادل من سنة الرقي والنجاح . اجل ، وسيكون لهذه السنة بعد الحرب شأن عظيم . سيكون لها من المكانة والنفوذ ما لم يكن لها قبل الحرب . كيف لا المخلصون النزيهون من المصلحين ينادون اليوم بالاتفاق الدولي وبالتحالف العام . لا يضر التضامن بالاستقلال بل يساعد في تعزيزه . ذلك لان الاستقلال الذي يضرب نطاقاً وهمياً او سياسياً او تجارياً على امة ما لا يلبث ان يتلاشى بتلاشي قوى تلك الامة وخيراتها .

الشعوب لا تحيا الا بمبادلة ثمار سعيها . والامم لا ترتقي الا بمبادلة ثمار العلم والعمل فيها . فاذا كانت هذه سنَّة العمران بين الامم المستقلة بعضها عن بعض ، حكماً وسياسة ، فكيف بها

بالشعوب التي هي من دم واحد وقطر واحد ولغة واحدة .

السوريون من الشعوب المستضعفة وهم لذلك في اشد حاجة الى التفاهم والاتحاد ، الى التعاون والتضامن . لا حياة لنا اذا تقسمنا وتجزأنا احزابا وطوائف ، مذهباً وعصبية بل في انقسامنا واعتزالنا بعضنا بعضاً موت الوطنية التي لم تزل في المهد . في انقسامنا باب لاحتلال اجنبي لا حد له ولا شروط تقيده . وقد حان لنا ان نفهم ذلك .

فينا اليوم فريقان بل حزبان ، حزب رسم دائرة صغيرة وقال : هذي هي بلادنا ، هذي هي دائرتنا . وكل من كان على غير مذهبنا هو خارج الدائرة . وحزب رسم دائرة كبيرة حول الدائرة الصغيرة وقال : هذي هي بلادنا وهذي دائرتنا تضم دائرتكم وتصونها . اصحاب الدائرة الاولى يقولون : لنا وحدنا . واصحاب الدائرة الثانية يقولون : لنا ولكم . الدائرة الاولى لبنان ، والدائرة الثانية سوريا. الاولى رمز لمبدأ النهضة اللبنانية ، والثانية رمز لمبدأ الوحدة السورية .

فاي المبدأين اصح ايها القارىء ؟ وأي المبدأين تعتنق ؟ المبدأ الثاني مبني على الفكرة الاجتماعية السديدة ان لا حياة للشعوب الصغيرة المستضعفة الا بالاتحاد ، بالتعاون والتضامن . وللمبدأ الاول مبني على الفكرة الطائفية التي لا ترى الحق في غير الاعتزال ، والتي امست عند الامم المتمدنة ضربا من التقليد او

اثراً من الآثار .

المبدأ الثاني مبني على السنة الاساسية لا شيء بلا شيء . فاذا ساعدنا من يرغب بتحريرنا من ذوي الصولة والاقتدار نال الصافي من غايتنا . واذا ترددنا وانقسمنا وتفرقنا فلا ننال من حريتنا الا ما تمنحنا اياه الدولة المتغلبة او ما تراه موافقاً اولاً لمصلحتها . اما مبدأ اصحاب الدائرة الضيقة الصغيرة فمبني على وهم ان فرنسا مثلاً تساعدنا وان كنا لا نحرك ساكناً في سبيل انفسنا . وانها تمنحنا حريتنا واستقلالنا – هذا اذا فازت بطرد العدو من بلادنا – حباً بتقاليد قديمة طوى ذكرها الدهر ،او اكراماً للصليبيين . لا اظن السوريين يؤخذون بمثل ذا التمويه .

لا شيء بلا شيء كما قلنا في مقال لنا سبق . والحقيقة التي ينبغي ان تكون فوق كل مصلحة وكل سياسة هي ان فرنسا تبتغي من بلادنا شيئاً لقاء ما ستضحيه في سبيلنا . وهذا حق لا ينكره الا المكابر او الدجال . لنفرض اذاً ان اللبنانيين استقلوا استقلالاً تاماً تحت رعاية فرنسا كما يزعم المضللون . فماذا في لبنان من وسائل العمران التي نستطيع ان نبادل فرنسا بها لقاء رعايتها ؟

اي اصحاب الدائرة الصغيرة ، اصحاب الفكرة البدوية العقيمة ، اي اخواننا القائلين بمثل هذه اللبنانية ، كيف نصون ديارنا ونحمي ذمارنا اذا اعتدى الجيران علينا ؟ بل كيف نحافظ

على استقلالنا اذا حاولت الاكثرية في سوريا وهي من المسلمين ان تنزعه منا ؟ بل قولوا لنا كيف نصون حدودنا البرية والبحرية ؟ أبأسطول فرنسا ؟ أبجنود فرنسا ؟ وهل يعقل ان فرنسا تبذل من مالها ودم ابنائها في سبيل استقلالنا لمجرد كوننا من سليلة الصليبيين كما يزعم الزاعمون ؟ ايظن الناس اننا على هذا المقدار من السذاجة ؟ لنجرد انفسنا من الاوهام ، لنقلع ساعة عن التضليل والتدجل، ولنفكر في معنى الاستقلال تحت رعاية فرنسا او غيرها من الدول .

نحن في زمن ساد فيه مبدأ الاقتصاد وعلت على كل نزعاته المصالح الصناعية والعمرانية والمالية . فاذا كانت فرنسا او غيرها من الدول ترغب في بسط حمايتها على شعب من الشعوب فلا تباشر في تحقيق رغبتها الا اذا كان في بلاد هذا الشعب ابواب لمشاريع صناعية ، ومصادر تجارية واقتصادية ، تقوم بنفقات هذه الحماية او في الاقل ببعضها . هذا من اصول الحماية او الاحتلال او الاستعمار . ولا يخفى علينا ان فرنسا بعد هذه الحرب تكون في حاجة الى المال شديدة . وكفاها ما في بلادها من الارض الخراب والمدن المتهدمة التي يجب ترميمها وتعميرها . فهل تظنها ايها الاخ اللبناني تنفق من فضلاتها علينا وعلى بلادنا اكراماً لسواد عيوننا او اكراماً لكوننا كما يزعم الدجالون من سليلة الصليبيين ؟

لاشي بلا شي — لا شي مجاناً . مبدأ قويم سديد لا ينكر صحته الا الجهلاء او المضللون . واذا بسطت فرنسا حمايتها على بلادنا فلا مشاحة ان سيكون لها يد كبيرة في تعمير البلاد واستثمار موارد الرزق فيه لتنفق منها على ما تقتضيه الحماية من النفقات . وهذا عدل . لاننا اذا كنا عاجزين اليوم عن نيل حريتنا واستقلالنا وحدنا ، واذا كنا راغبين في ان تبذل دولة من الدول شيئاً من قواها في سبيلنا ، فالتبادل بالمنافع واجب . واذا كانت بلادنا خالية مثلاً من سبل العمران ومصادر الرزق فلا يغرننا ان الدولة التي ستساعدنا تمنحنا حرية خالصة من كل شائبة ، وتهبنا استقلالاً تاماً صافياً لوجه الله .

لذلك نقول ان الفكرة اللبنانية ، بل الفكرة القومية الطائفية ، هي فكرة قديمة عقيمة . هي لو عمل بها اليوم ضربة قاضية علينا . فقد كانت سبب تقهقرنا وبلائنا في الماضي ، وستكون اذا سادتنا سبب تقييدنا في المستقبل . ولكننا واثقون بتعقل المستقلين رأياً وعملاً من اللبنانيين . فسينبذون ولا شك هذه الفكرة آجلاً او عاجلاً وسينبذون كل من بشر بها اما جهلاً واما تضليلاً .

وايم الله ليس احد اشد غيرة منا على لبنان ، وليس احد اشد رغبة منا في ان يكون للبنان استقلال نوعي على شكل ما كان له في الماضي ، بل ابعد قصداً من ذاك النظام وامتن اساساً .

فنحن ممن يطالبون باستقلال محلي لايخرج عن الرابطة الوطنية ، فيكون لنا الحق مثلاً ان ننتخب والينا او متصرفنا منا ويكون لاهل الشام واهل حلب و هل فلسطين نفس الحق ونفس الاستقلال . ولكننا نكون كلنا مرتبطين بالرابطة الوطنية ، خاضعين لحكم وطني وحاكم عام ، عاملين بسنة التضامن والتعاون التي هي سنة الاجتماع وسنة العمران .

لبنان ، لبنان ! قد زهدنا اخواننا السوريين بلبنان . كأن لاهل لبنان حقاً لا حق به لغيرهم من السوريين . يا لها من عصبية تذل ، يا لها من لبنانية ضيقة . ان السوري اخي والمسلم اخي . وان الحق الذي اتمتع به وحدي ليضعفني ادبياً لانه يثير المحروم منه عليّ فيضطرني الى ان اقاتله ظلماً وعدواناً .

سوريا واحدة لاتتجزأ . فاذا نال السوري حرية ونوعاً من استقلاله يشمل ذلك اللبناني والفلسطيني — المسيحي والمسلم والدرزي على السواء . والذي يخاف من مثل هذه المساواة هو ضعيف عاجز لا ثقة له بنفسه ، ولا هو اهل للحرية والاستقلال . واذا كانت فرنسا لا تستطيع ان تبسط حمايتها على سوريا كلها فهي لا تبسطها على لبنان وحده . والمستقبل شاهد على ما نقول [1] .

---

(١) وهذه سوريا وويلاتها تزكي على لبنان الشهادة

بين شاعر وعالم

في صفحة واحدة من « مرآة » اليوم قصيدة ومقال يستحقان الذكر والاعجاب . أما القصيدة فلصديقي الشاعر ابي ماضي . وهي من جميل شعره مبنى ومعنى ، الا انه يندب فيها آماله الغوالي وأحلامه الحسان .

واما المقال فلصديق آخر اجتمعت به لاول مرة في باريس وقد استصحبه والده ليلقي عليه درساً من لوح الوجود في التمدن الغربي وما فيه من محاسن وآفات . فشمت في زيدان الصغير حينئذ نفساً سامية ، وفكرة واعية جلية . وهو اليوم صاحب الهلال يعالج في المقال الذي نقلته « المرآة » موضوع اليوم . فيبرهن بأجلى حجة على وجوب الوحدة السورية الجغرافية والقومية .

القصيدة « زهرة من اقحوان » انما هي انشودة يأس تطرب وتحزن . والمقال « سوريا على مفترق الطريق » انما هو نبراس علم ينير ولا يثير . في هذا كما في تلك وطنية صادقة صافية لا اذناب لها ، ولا غبار عليها . على ان في القصيدة كما في المقال شائبة تعد نقصاً في نظر اولي النهى والعرفان .

صاحب الهلال الشاب يحذو حذو ابيه في الانشاء والتهذيب فلا يمس في مباحثه الشخصيات شأن العالم الحقيقي ، ولكنه

يتحاشى حتى التقية الاساءة الى احد من الناس ، او الى حزب من الاحزاب ، أو الى طائفة من الطوائف .

بحث في المقال الذي نشرته « المرآة » في الوحدة القومية بحثاً علمياً فوقف فيه عند حد المزالق والاخطار . ولم يبد لنا رأياً في حل مشكل المشاكل السورية . ولا أشار اشارة الى طريقة ما تمكننا من التوصل الى الوحدة القومية . ولعله كتب مقالاً اخر لم اطلع عليه يدلنا فيه بعد ان وصف الدواء الى من يحسن تركيب اجزائه . على انه اكد لنا في مقاله هذا ان « ليس من شأن الهلال خوض ميدان السياسة التحزيبية » . والسياسة اليوم لا التهذيب قابضة على نفس سوريا وعلى عقلها وعلى موارد تجارتها وعلى خيراتها الدفينة . فكيف يمكننا ان نخلص بلادنا من قبضة السياسة التحزيبية ؟ أو كيف يمكننا في الاقل ان نجعل يد السياسة عليها يد بر وسلام ، يد حكمة واتحاد ووئام ؟ هذا هو القسم الثاني بل القسم الاهم من مقال صاحب الهلال تركه على ما اظن لغيره من الكتاب . وسنكتب عنه ان شاء الله .

اما الان فأعود الى القصيدة التي راقتني جداً . قد اجاد ايليا ابو ماضي شعراً واحسن خيالاً . ولكنه خدع نفسه والقارىء معاً في استسلامه في اول القصيدة الى القنوط . قد ظن نفسه يائساً ، ظن رأيه دفيناً ، ظن فكره ذبيحاً ، ولكن ربة الشعر اتته بمعجزة من معجزاتها فأرته في النهاية يأسه الدفين وقد

نوّر املاً جديداً .

« ساقني روح خفي   نحو ذياك المكان »

« فاذا بالسر اضحى   زهرة من اقحوان »

زهرة الامل ما اجملها ، وان كانت بنت يوم تجدد حياتها الايام. لا يا أخي الشاعر ، آلهةُ الشعر لا تعلّم اليأس ، وربة النبوغ لا تعرف القنوط .

بكى ارميا اورشليم ، واورشليم لا تزال على وجه الارض . لعن اشعيا اسرائيل واسرائيل ، لا يزال حياً يعد النقود ويصيغ منها قيوداً للناس !

ابسم ياصديقي الشاعر للايام وان كانت عصيبة . القنوط سم للنفس ، والبكاء لا يفيد الامم . ولا يخفى عليك ان من شأن الشاعر في المواقف الوطنية ان يشحذ النفوس ولا يكسرها ، ان ينير القلوب ولا يحرقها .

وانت ياصديقي العالم اكرم بك وانعم من بحاث نقاد مجرد من الغايات النفسية والمآرب السياسية . ولكن البحث في شؤون الامم بحثاً علمياً لا يفيد وحده . التعليل حسن ، وازالة العلل أحسن ، ونور الشمس للعليل خير من الاثنين . أجل ، ان العلم الصحيح ما أقام الى البناء دليلاً ، واوجد الى العمران سبيلاً .

قرأت قصيدة ابي ماضي فقلت في نفسي ان اليأس في من يحسن مثل هذا الشعر ويتجلى له مثل هذا الخيال لمن المخيرات

لا المصيرات . هو يأس اختيار لا يأس اضطرار .

وكنت وانا اطالع مقال زيدان الابن اتوق دائماً الى شعلة حماس في حججه الدامغة . والحماس لا يشين علم العالم ، وان كان مثل الشاعر فوق الاحزاب . وان موهبة الواحد في نظري لهي شطر من موهبة الاخر .

العالم عين الامة والشاعر روحها . وان امة فيها عالم واحد وشاعر واحد لامة حية راقية ، لا تضمحل وان تشتت ابناؤها في اربعة اقطار العالم . فعلى الشاعر ابي ماضي وعلى العالم زيدان سلام من اخ لهما يحزن لما صارت اليه بلاده . ولكنه لا يبكيها ولا يندبها . فان اورشليم رغم مراثي ارميا لا تزال على وجه الارض . واسرائيل رغم تشتت ابنائه لا يزال حياً عزيزاً بما له من نفوذ في بلاد الله . وسوريا اخت اورشليم ، والسوري جنساً في الاقل ابن عم اسرائيل .

نحن اليوم في موقف يستوجب فوق كل شيء الشجاعة والصبر ، ثم الشجاعة والصبر . والسياسة ، وان بلبلت شعباً ما ، فهي لا تستطيع استئصاله . اجل ان الامة التي لا تقنط لا تموت . فاذا حرمنا نحن اليوم التمتع بامنيتنا الوطنية لا بدّ اذا واصلنا الجهاد في سبيلها ان يتمتع بها ابناء سوريا في المستقبل .

التطور والاستقلال

انا سوري اولاً ، ولبناني ثانياً ، وماروني بعد ذلك . انا سوري انشد الوحدة السورية ، القومية ، السياسية ، الجغرافية . انا سوري اجل مسقط رأسي لبنان ، واحترم مصدر لغتي العرب ، واستوكل في ديني الله وحده . انا سوري لبناني افتخر ببطولة المردة ، كما اني افتخر بصدر الاسلام وبمجد بني امية في الاندلس . انا سوري لا ينسى نهضة العرب على الاتراك ومن شاركهم بها واستبسل في سبيلها من السوريين واللبنانيين ، ولن ينسى شهداء الوطن وما قاساه اللبنانيون من الاهوال حباً بفرنسا والفرنسيس . انا سوري يود ان يرى في سوريا حكومة دستورية لا مركزية اساسها العدل والمساواة بالحقوق والواجبات ، وعمودها الوحدة الجنسية الجغرافية . انا سوري لبناني اعتقد بفصل الدين عن السياسة فصلاً تاماً دائماً ، لا قولاً فقط بل فعلاً وشرعاً ، لاني مدرك كما يدرك كل عصري عاقل حر ان حجر العثرة الاول في سبيل الوحدة القومية انما هو التحزب الديني . انا سوري لبناني ماروني انظر الى الماضي مودعاً ، واتطلع الى المستقبل مسلماً مستبشراً .

قلت مراراً ولا ازال اقول بفصل الدين عن السياسة . قلت

مراراً ولا ازال اقول برفع العصبية الوطنية على العصبيات الدينية كلها . كان السوريون في الماضي ولا يزال اكثرهم اليوم ينتسبون اولاً الى دينهم ، ثم الى مسقط رأسهم ، ثم الى وطنهم فيقول اللبناني الماروني : انا ماروني شبابي مثلاً لبناني . ويقول الدمشقي المسلم : انا مسلم دمشقي سوري . فقلبت الآية لتوافق روح الزمان بل روح التطور والعمران . ولا خلاص لنا من التحزبات الطائفية ، المبددة ، المهلكة ، الا بنمو هذه العاطفة الجديدة فينا . الوطن اولاً في قلب من يحب الوطن حقاً ويجاهد في سبيله . والطائفة اولاً في قلب من يتشدق بحب الوطن وهو لا يريد بالوطن غير طائفته .

هب ان زعماء الطوائف السورية كلها اتفقوا في حكومة واحدة سورية وقاموا يؤسسونها كأسلام ومسيحيين بل كسنيين وشيعيين ودروز وموارنة وارثوذكس ويهود ، فاتحادهم لا يدوم طويلاً . واذا دام لسببٍ ما يظل متزعزعاً واهياً لا يؤلف من القوميات الدينية قومية واحدة وطنية . لا ، لا . ما زال المسلم في دار الاحكام مسلماً ، والماروني مارونياً ، وقس على ذلك ، ما زلنا امة مقسمة عاجزة تؤثر صالح الطوائف على صالح الوطن ، بل تفضل المآرب الذاتية على الصوالح العمومية .

اني ممن يعتقدون ، على كل ما حدث في سوريا في السنة

الماضية [١] ان التطور سنّة طبيعية ، وان فصل الدين عن السياسة من نتائج التطور السياسي والديني . لذلك لا اوافق اخواني اللبنانيين في استقلال ينشدونه وهم غير مدركين ان نصفه وهم ونصفه تعصب ديني . كما اني لا اوافق مواطنيّ الدمشقيين في استقلال تام ناجز يطالبون اليوم به وهم في حاجة الى مال الاوروبيين وعلم الاوروبيين في بادىء امرهم . بل هم في حاجة الى جندٍ منظم يستأصل شأفة العصابات المجرمة ويوجد الامن والطمأنينة في البلاد .

اجل ، اني لم ازل اعتقد بمشارفة اوروبية الى اجل محدود حتى يطمئن المسيحيون الى اخوانهم المسلمين فتنمو بين الشعبين تدريجاً ثقة تمكنهم من التآلف والاتحاد . فاذا كان اخواننا في دمشق شريفين نيةً ، مخلصين عملاً ، فليفتحوا قلوبهم وعقولهم اذاً وليرحبوا بمن يريد مساعدتهم .

انهم يطالبون اليوم بالوحدة السورية ، ويعدوننا بحكومة دستورية حرة مؤسسة على سنن الدمقراطية بل على سنن العدل والاخاء والمساواة . نعم الغاية غايتهم . ولكن حكومة مستقلة في قلب بلاد يستولي الغير على ابوابها البحرية لا تفي بواجب الاستقلال ، ولا تنعش املاً في حياتنا الوطنية . فاللبناني

(١) اي حوادث مرجعيون .

وهو يستنجد الافرنسي مذعور خائف ، مذعور مما حدث ، وخائف مما قد يعاد من ماضٍ اليم .

فيا اخواني الدمشقيين ، قولوا لفرنسا اذا كنتم مخلصين في ما تطلبون وتعدون : اننا نود ان نكون وهذا الشعب اللبناني امة واحدة لهم ما لنا وعليهم ما علينا . بل عليهم اقل مما علينا اكراماً لتقاليدهم وعملاً بما توجبه طبيعة بلادهم . تعالي اذن راقبينا خمس سنوات مثلاً فتتأكدين حسن نيتنا وتتحققين ان شاء الله حسن عملنا . اننا لنرحب بك يافرنسا اذا ساعدتينا في تعزيز الوحدة القومية الجغرافية ، ولكننا نصدك ، نقاومك ، نهدر دماءنا في محاربتك اذا حاولت قتلها .

ولا شك عندي ان سياسة فرنسا السورية ستكون منذ الان فصاعداً سياسة توحيد لا تفريق [1] ولا شك عندي ان الامير فيصلاً وهو الزعيم البصير الحكيم يستطيع ان يقف بالمتهوسين عند حد التعقل والاعتدال . فاذا كان السوريون في المنطقة الشرقية يريدون استقلالاً وطيد الاركان فليعلموا ان لا سبيل اليه الا باتحادهم واللبنانيين . وما زال في البلاد فئة من الناس تفزع الى حكومة اوروبية ما زال شبح الاحتلال منتصباً فيها يهدد كيان القومية الوطنية .

---

(١) سبحان من يزيل الشكوك ويعيدها .

وبكلمة اوضح ما زال لبنان يقبل بالمشارفة الافرنسية بل يطلبها ، والسوريون في الداخلية يرفضونها ، فستبقى الحكومة المشارفة مضطربة الرأي ، مترعزعة الاصول ، لا تدري أتخرج من لبنان او تبسط سيادتها في المنطقة الشرقية ايضاً . وقد كان هذا موقف فرنسا منذ دخلت سوريا حتى الشهر الماضي . فكان ويالاسف سبباً من الاسباب التي شجعت عصابات الاشقياء في ما ارتكبوه من الفظائع باسم الوطن. الا ان هناك اسباباً أخرى قد نتعامى في غيرتنا المذهبية عنها . ليست المسؤولية في هذه الفظائع على حكومة دمشق ، ولا على العصابات فقط ، ولا على الحكومة المحتلة وحدها . لنسجل الحقيقة وان كانت علينا . فاذا تقصينا الاسباب يتضح لنا المسؤلية في بادىء الامر انما هي على اللبنانيين انفسهم ، وقد وكلوا امورهم السياسية الى رئيس طائفة مسيحية ، فاستحالت المسألة وقد اكتسبت صفة دينية ، احتجاجاً على الاسلام صريحاً جلياً . ناهيك باسترسالهم الى حب فرنسا حتى الهوى ، حتى الجنون ، فكرّهوا المتعقلين من المسيحيين اياها ونفروا المسلمين .

ولا بد من تسجيل حقيقة اخرى وان كانت مؤلمة . ان المسلمين لاشد اخلاصاً في وطنيتهم من المسيحيين ، واسد راياً وخطة . فهم يطلبون استقلالاً تاماً دون وصاية اوروبية وهذا صريح جلي . والمسيحيون يتغنون بالوطنية ويطلبون استقلالاً

ناقصاً بمشارفة هذه الدولة او بمساعدة تلك الامة . ولا بأس بالحماية بل نراها اليوم واجبة اذا كانت محدودة الاجل ، مرتبطة بشروط لا تقدح بالوحدة القومية ، ولا تضر بمصالح الوطن .

ولكن الاقلية المسيحية ستظل على ما يظهر اقلية – وهي تنقص بسبب الهاجرة يوماً فيوماً ، والاكثرية الاسلامية ستظل اكثرية في البلاد السورية ان المسيحيين لفي حاجة اذاً الى حماية دائمة ، والحماية الدائمة احتلال ، والاحتلال انما هو الاستعمار . فهل الاستعمار يا ترى نوع جديد من الاستقلال ؟ وهل ينطبق مثل هذا الاستقلال الموهوم على وطنية اللبنانيين ؟ أيرضون بمشارفة افرنسية دائمة بل باحتلال بعيد الاجل ، بل باستعمار يفقدهم تدريجاً جنسيتهم ، ولغتهم ، وتقاليدهم ، فيمسون كأبناء الجزائر والتونسيين ؟ بل يمسون لا لبنانيين يعرفون ولا فرنسويين .

اوَ ما حان لبني لبنان ان يفهموا ان فرنسا تريد بسط حمايتها في البلاد السورية كلها ، وانها تلعب بساداتنا اللبنانيين وبالاكليروس لعب الاكر ؟ فلما كان موقفها متزعزعاً في سوريا – لما كانت تخشى ان تتغلب السياسة الانكليزية على سياستها كما تغلبت سنة الستين – أخذت تشجع اللبنانيين في طلب استقلالهم مقروناً بمشارفتها . أجل ، وقد شجعتهم الى حد ان اذنت برسم الارزة في العلم الافرنسي وبرفعه علماً لبنانياً في الجبل . ولكنها حين تعزز موقفها في ما اقره موتمر سان ريمو غيرت خطتها اللبنانية

فأمرت بطي العلم – علم المجد والاستقلال الموهوم – بل منعت رفعه والمظاهرات به ، لاسباب قد تكون غامضة عند اعضاء مجلس الادارة ، ولكنها واضحة في نظر ذوي الالباب .

اننا نلوم فرنسا على مثل هذه السياسة . واننا نحترم الصراحة وان كانت علينا . فلو احسنت فرنسا النصح للبنانيين منذ البدء ، ولو لم تمالىء الاكليروس اللبناني وتمده بسكوتها [1] في حماسه الطائفي لما حدث ما حدث من المظالم والفظائع في المدن المجاورة المنطقة الشرقية . فهل كان في سوريا خوف من العصابات قبل سفر البطريرك الماروني الى باريس ؟ وهل اخلص المسيو كليمنصو النصح للوفد الديني اللبناني ؟ كلا ، ثم كلا . فلو عمل هذا الافرنسي الكبير بمبادئه الحرة وسلك في سياسته اللبنانية المسلك الذي يسلكه في سياسته الافرنسية لقال للبطريرك وحاشيته : خير لكم ان تتحدوا وجيرانكم ونحن في البداية نشارف على هذا الاتحاد الى حين . لو قال لهم هذا القول بدل ان « يجاملهم » فيعطي البطريرك تعهداً ارتبنا بقيمته في ذاك الحين وتحققنا قلة قيمته اليوم ، لما امعن اللبنانيون بالهوس الذي جرّ عليهم الويلات . ان كليمنصو الحر كان رجعياً في سياسته اللبنانية .

---

(١) ثم عالما ونفوذها

المردة والصليبيون

يكثر الناشدون استقلال لبنان ، المتغنون بحب فرنسا ، من ذكر المردة والصليبيين . وقد فاتهم ان احوال الماضي لا تنطبق قطعاً على احوال الحاضر . قد حارب المردة في قديم الزمان من أجل دينهم لا من اجل استقلالهم المدني السياسي . قد تحالفوا وملوك بيزنطية لا لان بيزنطية كانت أقرب اليهم من دمشق ، ولا لان الروم من جنسهم ودمهم بل لانهم كانوا مسيحيين . وقد حارب الموارنة العرب لا لان العرب جاؤوا يقوضون استقلالهم ويحتلون بلادهم بل لان العرب مسلمون . فلو كان الاستقلال السياسي المدني في نظرهم أعز شيء يذودون عنه لما رضوا بعدئذ بسلطة الاغيار يوم تحالفوا والصليبيين باسم الدين أيضاً ورغبوا بهم اسياداً في البلاد ما يزيد على الماية سنة .

ان مقاومة اللبنانيين العربَ اذاً لمن أجل الدين لا من أجل الاستقلال . فقد كانت المسألة في تلك الايام دينية بحتة . واليوم نرى الموارنة يؤثرون الفرنسيس على سوريي دمشق . لان الفرنسيس ، على ما فيهم من كره لمزج الدين بالسياسة ، لا يزالون يمالئون الموارنة على سبيل الدين . والموارنة لا يزالون يقاومون العرب لا حباً باستقلالهم بل لان العرب

مسلمون .

والبرهان على ذلك انهم يرضون بمشارفة افرنسية لا أجل محدود لها ، مشارفة تستحيل تدريجاً اذا شاءت فرنسا احتلالاً تاماً دائماً ، ولا يؤاخون مواطنيهم في البلاد ويتحدون وجيرانهم . ان اللبنانيين من هذا القبيل رجعيون ، ونزعاتهم لا تزال دينية كما كانت في ايام المردة والصليبيين . واأسفاه ! افلا تغير الف سنة شيئاً من هذا الشعب اللبناني الجامد في بلاده الناهض في بلاد الاجانب ؟ وهل يظل منقاداً الى الاكليروس والى الاعيان عبيد الاكليروس ، اولئك الذين لا يهمهم من استقلال لبنان غير ان يظلوا متبوئين كرسي السيادة ، قابضين على نفوس اللبنانيين وعلى عقولهم ؟ أتعد المشارفة الاوربية غير المحدودة الاجل استقلالاً ؟ أوَ يمكن ان يكون لها اجل محدود والحال التي توجبها ، اي الاكثرية الاسلامية والاقلية المسيحية ، حالاً دائمة لا تتغير ؟ انسلك اليوم ونحن في القرن العشرين مسلك اجدادنا ابناء القرن العاشر ؟ اهذا ما نسميه منعة ومجداً واستقلالاً ؟ اتتطور الامم في سائر المعمور عملاً بسنة الارتقاء ويظل اللبناني مقيداً بقيود التقاليد العقيمة ، قيود العصبية الطائفية ، قيود صاغها الاكليروس والاعيان في الاجيال الغابرة ولا يزال الاكليروس والاعيان يستخدمونها اليوم لمآربهم الذاتية ؟

ولكن البحر مفتوح لبني لبنان والعالم الجديد يناديهم .

فضلاً عن الاحوال الاقتصادية التي تحول دون اقامتهم في بلاد ضرب الفقر فيها عصاه وخيم البؤس على ربوعها .

قد كان من حق الموارنة بل المردة في الماضي ان يحاربوا العرب الذين جاؤوهم ينادون : الجزية او السيف او الاسلام . ومن حقهم ان يرفضوا الثلاثة . ولكن لا جزية اليوم ولا سيف ولا اسلام . انما هي دعوة اخوان لنا في الوطنية ، دعوة سلام وولاء ، دعوة الى التعاضد والتضافر في تشييد وطن اساسه الحرية والعدل والمساواة . فهل يتقدم السوريون المسلمون ويتأخر اللبنانيون المسيحيون ؟ هل يرفع علمٌ سوريٌ في دمشق وعلم افرنسي في لبنان ؟

قلت في بدء مقالي اني سوري اولاً ، ولبناني ثانياً ، وماروني بعد ذلك . أي اني وان كنت من سلالة المردة ، ابن هذا الزمان ، وبيني وبين اجدادي الف سنة من التطور ، والرقي والعلم والعمران . فاذا قلبت الآية لا اكون خائناً بلادي ، جاحداً ديني . بل اكون مخلصاً لنبوغ امتي ، عاملاً بسنة التطور التي ينبغي ان تسود بلادي وشعبي .

على رسلكم اخواني . اني لبناني مثلكم ، ولكني اعتقد اعتقاداً شبيهاً بالايمان وهو ان لا حرية ، ولا استقلال لسوريا ، الا اذا كان كل سوري يقلب الآية مثلي ويسلك بموجبها . فيقول الارثوذكسي اللبناني : انا سوري اولاً ، ولبناني ثانياً ، وارثوذكسي

بعد ذلك . ويقول الدمشقي : انا سوري اولاً ، ودمشقي ثانياً ، ومسلم بعد ذلك . ويقول الحوراني : انا سوري اولاً ، وحوراني ثانياً ، ودرزي بعد ذلك . ويقول الفلسطيني : انا سوري اولاً ، وفلسطيني ثانياً ، ويهودي بعد ذلك .

أجل اخواني ، ان الوحدة الوطنية لا تكون الا بمثل هذا الانقلاب الديني بل هذا التطور الاجتماعي الوطني . وان الوحدة القومية وان بدت اليوم حلماً من الاحلام كائنة لا محال . هي حلم ستحققه الايام . اي اخواني اللبنانيين لنتطلع الى الامام ، فقد شغل الفينيقيون دوراً من التاريخ كما ينبغي . وقد استبسل المردة في سبيل ملوك بيزنطية السفاحين من أجل الدين ، فمثلوا دورهم في ذلك الزمان كما ينبغي . وقد مثل الموارنة الذين حاربوا مع الصليبيين دورهم كما ينبغي . ونحن اليوم في زمان غير زمانهم ، وأحوالنا غير أحوالهم ، وعالمنا السياسي غير عالمهم . يجب علينا اذن نحن ابناء هذا الزمان ان نمثل دورنا كما ينبغي لنا . ان مزج الدين بالسياسة يقضي على الاثنين بالفساد . وان وطنية فيها مساعدة افرنسية دائمة هي وطنية فاسدة في بادىء الامر ، زائلة لا محال في آخره .

اني اغار يا اخواني اللبنانيين على مصلحة لبنان كما تغارون ، واجاهد في سبيله كما تجاهدون . الا اني ارى حدوداً اوسع من الحدود التي ترون وتطلبون . ولا اخاف على اللبناني اذا شارك

في بعض اموره السياسية والاقتصادية الدمشقيين . بل اعتقد ان اللبناني فرداً انما هو في منزلة أرقى الشعوب ، ولا يكون مغلوباً على امره حيث كان وكيف كان . أوَ من حاجة لان اشير الى نبوغه ونشاطه ونهوضه خارج بلاده ؟ اضف الى ذلك ان العقل يسود دائماً في شؤون الامم وسياسات الدول . العقل هو الاكثرية . وان خوفنا على اللبناني اهانة له .

أجل اننا نهين اللبنانيين عندما نطلب لهم استقلالاً ضمن دائرة صغيرة كلبنان الصغير أو الكبير . بل نظلمهم اذا حصرنا مواهبهم وقواهم كلها في صخور لبنان .

عشرون حجة

لو لم اكن اعتقد اعتقاداً تاماً ان مصلحة جبلنا وخير ابنائه انما هما في اتحادنا مع اخواننا في الداخلية لما كنت والله اقول كلمة في هذا السبيل ، بل لكنت من الداعين الى عكس ذلك. اجل ، ان خلاصنا ، وسعادتنا ، ونجاح بلادنا في الحال والاستقبال ، تتوقف على امر واحد نقرره اليوم وهو اتحادنا واخواننا السوريين . ولا اسأل النازعين الى الانفصال العدول ، ولا اتوقع في ما اقوله القبول ، دون ان تسمعوا برهاناً بل براهين . فاذا كنت اقول بالاتحاد واعتقد ان ما اقول هو الحق فلي على ذلك عشرون حجة .

(١) – ان تقسيم البلاد السورية الى ولايات مستقلة تماماً بعضها عن بعض يقضي على استقلالها ووحدتها ويمكن منها الطامعين بالاستعمار .

(٢) – ان تقسيمها الى « دوائر نفوذ » اوروبية يعيد الى الوجود المسألة الشرقية التي كانت السبب الاول في بلائنا وتأخرنا . كيف لا وقد كانت بلادنا – لا اذكر الجبل وتدخل القناصل في شؤونه كلها – مسرح اطماع الدول الاوربية ، وكنا نحن ضحية سياساتهم الخارجية واغراضهم التجارية .

(٣) – اذا استقل لبنان عن الداخلية تنقطع عنه اهم لوازم العيش . باب الحنطة وهو في حوران يقفل دون حاجته وطرق النقل واهمها في يد السوريين تمنع عنه ، او يميّز في اجورها عليه .

(٤) – اكثر من نصف تجارة بيروت هي مع تجار المدن في الداخلية فاذا استقل لبنان خسرت بيروت اهم موارد تجارتها . وقد بدأ البيروتيون يشعرون بذلك ويتألمون .

(٥) – ان فصل لبنان عن الداخلية خطأ جغرافي وقسمة غير طبيعية لان في يد لبنان ابواب البحر ولا حاجة له بها كلها ، وفي يد دمشق وسائل النقل ولا سبيل لا ستخدامها كلها لتنتفع بها البلاد السورية قاطبة .

(٦) – حياة البلاد الاقتصادية تضطرب ، وحياتها الصناعية وهي في حاجة الى حرير لبنان تختنق تدريجاً ، وحياتها المالية تمسي في قبضة سماسرة « القطع » والمتاجرين بالصكوك والاوراق .

(٧) – البريد والتلغراف وسكك الحديد وهي في ايدي الضغائن والمنافسة تكون معرضة ابداً للخلل والتخريب اذ يتجاذب طرفيها شعبان نافران بعضهما من بعض ، قائمان بعضهما على بعض .

(٨) – بدلاً ان يكون في البلاد جمرك واحد تتعدد الجمارك

ومزعجاتها واضرارها في كل المدن الكائنة على حدود اصطناعية ، فتجمز على الصناعة والتجارة ، وتكرّه الى الناس ، وعلى الاخص المصطافين في لبنان والسائحين ، السفر في سوريا .

(٩) – بدل جند واحد يناسب عدد سكان البلاد تضطر البلادان الى تجنيد جندين على نسبة جائرة لا تطاق لتحمي تخومها من تعديات جارتها . ويكون لبنان من هذا القبيل مظلوماً جداً لان اللبنانيين وهم الاقلية يمسون في خطر دائم من هول عصابات الجهل والتعصب .

(١٠) –لا يستطيع لبنان وحده ان يقوم بنفقات حكومته المدنية . فكيف يقوم بنفقات جند كبير ؟ ان العجز في ميزانيته امر معلوم . خذ لك مثلاً . قد بلغت ميزانية الجبل سنة ١٩٠٩ تسعة وخمسين الف ليرة . فلو فرضنا ان لبنان استعاد الاراضي المسلوخة عنه – لو فرضنا لبناناً كبيراً – فلا اظن الميزانية تبلغ اكثر من مائة الف ليرة . اضف اليها دخل الجمرك الذي لا يبلغ اكثر من مائة الف ليرة سنوياً ، ثم دخل البريد والتلغراف والملاحات – قل مائة الف ليرة اخرى – فتبلغ ميزانية الجبل ثلاثمائة الف ليرة . فاذا كان مستقلاً يقتضي له جند لا يقل عن العشرة الاف عداً ، ونفقاته دون المعدات ، اذا فرضنا ثلاث ليرات راتب الجندي شهراً تبلغ ثلاثمائة الف ليرة . فمن اين نجيء بعد ذلك بما يلزم لدفع رواتب المأمورين والمشارفين على المأمورين

فضلاً عن نفقات الشرطة والمدارس والمشاريع العمومية لترقية الصناعة والزراعة في البلاد ؟

(١١) – ان خيرات لبنان الدفينة لا تستثمر بغير المال والعمال والاخصاءيين . فاذا كان دائماً مهدداً بالعصابات ، ولا أحد فيه يأمن على ماله وحياته ، وكانت احواله وجيرانه كأحوال الجمهوريات الصغيرة في اميركا الجنوبية ، اي دائماً في احتراب ، فالعمال يهجرونه ، والمتمولون لا يبذلون مالاً فيه ، والاخصاءيون لا يفادون بعلمهم ووقتهم اكراماً لاجدادنا الذين حاربوا مع الصليبيين .

(١٢) – المشارفة الافرنسية على لبنان مستقل عن الداخلية تتدرج الى احتلال دائم ، والاحتلال الدائم يقتل روح القومية ، فيمسي لبنان كتونس او الجزائر ، ويفقد اللبنانيون روحهم القومية ، وآدابهم العربية ، وتقاليدهم الوطنية والاجتماعية .

(١٣) – من الحقائق التي لا ينكرها من كان له المام بتاريخ فرنسا الاستعماري انها لا تبذل من خزينتها شيئاً من المال يذكر في ترقية مستعمراتها . فان خطتها الاستعمارية مبنية على القول المأثور عندنا « من دهنه سقيله » ودهن لبنان لا يكفي واأسفاه طبخة واحدة من طبخات العمران في هذا الزمان ..

(١٤) – ان الرأي العام في فرنسا والاحزاب المعارضة الحكومة يقاومون كل سياسة خارجية ، وكل خطة دولية ،

تستوجب ارسال جنوداً افرنسيـة الى الخارج . وفي الحوادث السورية الحاضرة برهان واضح على ذلك . وان جنداً لبنانيساً بقيادة ضباط فرنسويين لاشبه بجند تركي بقيادة ضباط المان . بل هو أقرب الى الفوضى منه الى التنظيم . فاذا كان المأمور اللبناني يتذمر من سلطة المستشار فكيف بالجندي ' ونظـام الجندية الحديث كالحديد لا يلين لاحد ' ولا يذوب حتى في نيران القتال ؟

(١٥) – ان روح الزمان المادية لروح احتكار واستئثار . وهي رغم ما تفكك من ملك ضخم ' ورغم ما تألف حديثاً من الدول الصغيرة ' لا تزال اشد ميلاً الى الكبيرة منها . بل هي عدوة الامم الصغيرة باطناً وفعلاً ' وعلى الاخص اذا كانت في بقعة من الارض طالما تطاحنت فيها الشعوب ' ولم تزل تشرأب اليها اعناق الاستعماريين في اوروبا . وان امـة لا تتجاوز المليون عـداً لتذهب ضحية ذوي الاطماع القريبين منها والبعيدين .

(١٦) – ان الحرب الاقتصادية في العالم اليوم تقضي على الامم بالوحدة الجغرافية في الاقل وبالتضامن والتكاتف ' لتصون مصالحها ' وتحفظ كيانها ' وتمهد سبيل رقيها المادي .

(١٧) – السوريون جيراننا لهم ما لنا من خير يُرجى ' وعليهم ما علينا من شر يُتقى . فضلاً عن ان الجار ' مهما كان دينه ' اقرب الينا من الاغيار بما يربطنا واياه في الاقل من روابط الجنس

واللغة والجغرافية . وان مأموراً اكلمه بلغتي خير من مأمور اضطر الى ترجمان لاعرض عليه امري .

(١٨) – ان انفصالنا عن اخواننا في الداخلية دليل على تعصب فينا ديني وسياسي ، بل هو دليل على اننا نؤثر حب الذات على حب الوطن . او انا جبناء نخشى الاكثرية فلا نصلح لتكوين امة حرة ، راقية ، مستقلة .

(١٩) – ان في اللبناني من جودة العقل والنشاط والذكاء ما يرفع شأنه ويعزز اسمه أين كان ، بل يكفل له المساواة ويصون حقوقه ومصالحه وان كان من الاقلية في البلاد .

(٢٠) – واخيراً . اذا تم اتحادنا نستغني في مدة خمس سنوات أو عشر بالاكثر عن المشارفة الاجنبية . واذا ظللنا منقسمين فلا امل لنا بالاستقلال . أما اخواننا المتحمسون في دمشق فخير لهم ان يذعنوا الى اميرهم الحكيم فيفوزون باستقلال يضم تحت رايته الاقليات في البلاد . ولكن الاستقلال الناجز التام ، والاقليات لم تزل ذعرة خائفة نافرة ، لا يحقق امنيتهم وامنيتنا بوحدة سورية قومية شاملة . وهناك امر خطير قد يكون فاتهم وهو ان الخطر التركي لا يزال مخيماً في الشمال ، والخطر البُلشيفي يمتد جنوباً . فهل نستطيع ياترى ان نرد الخطرين ونتخلص منهما في بادىء امرنا وليس لدينا من الجند وعدة الحرب ما يكفي اليوم لردع عصابات الاشقياء في البلاد ؟

فاذا تم اتحاد الدمشقيين واللبنانيين ، وتمكنوا من تأسيس حكومة دستورية ثابتة ، تستطيع حفظ الامن والنظام ، وتكفل للاقليات حقوقها ، وتجري في احكامها على سنن العدل والمساواة ، تنتهي عندئذ مهمة الدولة المشارفة ، ولا عذر ولا حق لها اذ ذاك بالبقاء في البلاد .

الطريقة الوحيدة اذاً لحل قضيتنا المعضلة هي ان يتحد اللبنانيون والدمشقيون ويتفقون على مشارفة افرنسية محدودة الاجل .

ان الهوس غالباً ضلاّل ، والعناد في غير الحق قتّال . وان امرءاً يرتأي رأياً او يعتقد اعتقاداً ثم ينبذه اذا تحقق فساده لاكبر نفساً ولاشد جرأة من المستبسل في ساحة الوغى . أجل ، ان الجرأة الادبية هي ان نقول الحق في ما يتجلى لنا منه ، وان كان قولنا اليوم ينفي قولنا بالامس .

فهرس الجزء الرابع

تآليف امين الريحاني

— في اللغة العربية —

الريحانيات	اربعة اجزاء
زنبقة الغور	(رواية اخلاقية)
خارج الحريم	« «
نبذة في تاريخ الثورة الافرنسية	
المحالفة الثلاثية في المملكة الحيوانية	
ملوك العرب جزءان	(تحت الطبع)
تاريخ نجد الحديث	

تآليف امين الريحاني

– في اللغة الانكليزية –

The Book of Khaled كتاب خالد

رواية اجتماعية شرقية غربية

The Luzumiyat اللزوميات

منتخبات من شعر ابي العلاء المعري

A Chant of Mystics and other Poems نشيد المتصوفين

ديوان شعر

The Descent of Bolshevism تحدر البلشفية

نبذة تاريخية في النهضات الشيوعية في الشرق والغرب

The Path of Vision مسالك النفس

مقالات فلسفية اجتماعية

Wajdah وجده

رواية تمثيلية

The Arabian Nights بحث ادبي انتقادي

في روايات الف ليلة وليلة ومصادرها التاريخية والادبية

اقوال وآراء في الريحاني والريحانيات

الريحانيات من حسنات الاداب في هذا الزمان

اسماعيل صبري

لامين الريحاني خاطر شريف في الحياة . وسهولة ورقة في التعبير

ادوين ماركهام

اتقن الريحاني لغة القرآن اتقانا يسمح له بالتحرير فيجاري اكبر الكتاب اسلوباً وسلاسة وسلامة منطق

المحامي محمد لطفي جمعه

كانت « الريحانيات » من الكتب الخمسة او الستة التي عرفتني باتجاه الفكر العربي الحديث في صيغتي الشعر والنثر

الآنسة مي

لقد تبينت من القطعة التي سمعتها (من انشاء الريحاني) اسلوب العظمة الكتابية وصفاء النفس والروح الثائرة على الظلم العتيق

الدكتور منصور فهمي

ان للريحاني اثاراً جليلة واياد فاضلة على الشرق وان احسن شيء اكرم به الريحاني انه عضو حي بريء من الامراض

الشيخ علي الرنكلوني
من علماء الازهر الشريف

ابو العلاء شاعر حقيقي (مطبوع) وله فلسفة اسمى وانبل من فلسفة عمر (يقصد عمر الخيام) وفي ترجمة الريحاني لمنتخباته مرايا شعرية نادرة

ادوين ماركهام

لو كان لي محشم في حديقة تزهو فيها زهور دمشق ما كان اسعدني ان اقضي سويعات العصر والغروب متصفحاً اللزوميات ترجمة الريحاني

كلينتون سكولارد

هو الكاتب المشهور والمفكر المدقق صاحب التآليف القيمة باللغتين العربية والانكليزية وهو خير ممثل للنبوغ الشرقي في العالمين الامريكي والاوربي

جريدة الاهرام